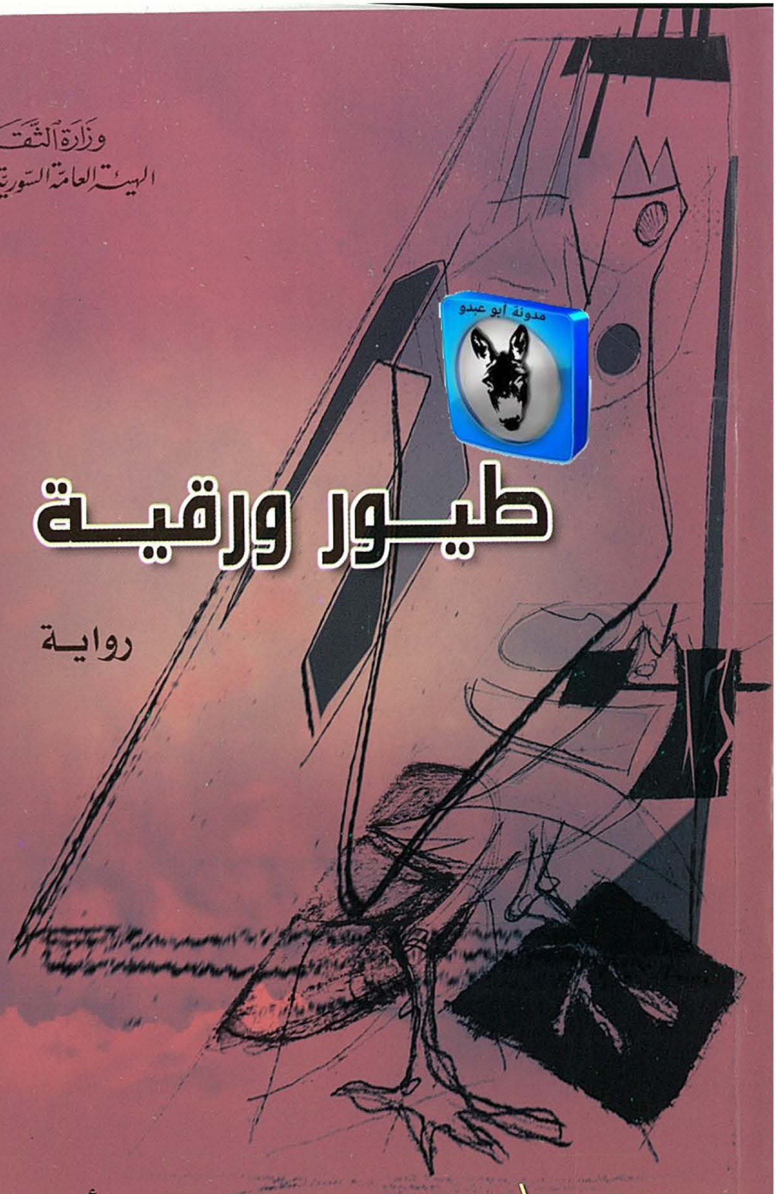
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



طيور ورقية

رواية

محمد أبو معتوق

قصص وروايات 21

محمد أبو معتوق

طيور ورقية

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

طيور ورقيــة : روايــة / محمد أبو معتوق .- دمشق: الهيئــة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩ .- ٢٤٤ ص؛ ٢٠ سم .

(قصص وروايات ؛ ٢١)

١- ٨١٣,٠٣ م ع ت ط ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ م ع ت ش ٣- العنوان ٤- أبو معتوق ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٢١»

الإهـــداء

إلى صدقي إسماعيل - صاحب جريدة الكلب

وإلى عبد القادر عنداني

وصفوان عكّي ..

إلى هؤلاء الراحلين الذين عملوا في الصحافة

وإلى سواهم من العاملين الباقين..

أقدّم هذه الرواية..

محمد أبو معتوق

تنويه :

كائنات هذه الرواية لا تربطها علاقة
أو دلالة بكائنات الواقع الرتيب .

افتتاحية أولى

على سطح الصحيفة المحلية الوحيدة

- أسراب اللقالق. وطيور مالك الحزين، والزرازير. تعبر كل خريف سماء (حلب).

باتجاه الأقاليم الدافئة.

أعوام طويلة مرّت، لم تعبر فيها الأسراب سماء المدينة، ولم ينشغل بال أحد بالظاهرة.غير أن كبير المحررين في الصحيفة المحلية الوحيدة، كان منشغل البال، لذلك كان يخرج في مواقيت هجرات الطيور إلى سطح مبنى الجريدة، ليستشرف الآفاق، علّه يلمح سرباً عابراً، سرباً ضالاً، سرباً هارباً، ليمعن النظر فيه.

وعندما تضطرب الآفاق في عينيه، ولا يلمح شيئاً سوى الفراغ، يحرك ذراعيه في هيئة طائر وحيد، ليغوي الجهات،

والأسراب البعيدة على القدوم، أو ليغرر بالهواء ليحمله، فيتمكن من الإفلات من الجريدة، والانضمام للسرب الشاحب البعيد الذي يطير في مخيلته. وعندما لا يعينه الهواء و الرفيف الطويل، يتكوم على حلمه، وينزل متهدلاً مثل طائر أودى به العصف.

والبلل الشديد..

❖ ❖ ❖

• في أحد الأيام، وبينما العاملون في الجريدة يتابعون أعمالهم عند غرّة الغروب الذي يقلق الآفاق و الصدور، نزل الأستاذ الحمداني درج السطح مرفرفاً، وعبر الرواق الطويل وصاح:

- إنه يعبر.. إنه يعبر، فركض المحررون إليه، وركضوا خلفه، وصعدوا إلى السطح مستغربين، وعندما وصلوا.. رفعوا رؤوسهم، وتأملوا ذاهلين. سرباً من اللقالق، وهو يتحرك في الأفق مثل بشارة إلهية تبهج العيون، والظنون، وقد تشكل السرب في هيئة سهم هائل من الطيور البيض، يغري الملائكة بالبياض والرفيف، وقد تحرك السرب مثل

حلم باهر في مخيلة السماء. وكان السرب.. في الغروب، والغروب يدفع للريبة والحنين،

• حين وصل سرب اللقالق إلى أطراف المدينة، بدأ بالدوران، والاضطراب.. كأنما أصابت الخشية قائد السرب من أن يهبط الليل سريعاً دون أن يتمكن السرب من أن يحط في مكان آمن ليبيت فيه، لذلك أعطى قراره بالهبوط على أسطحة المدينة.. وفجأة صاح..

عبد القادر الحمداني في قائد سرب اللقالق كأنما يعرفه.. إياك أن تهبط.. إياك. الآفاق السوداء المظلمة، أكثر رأفة وحنانا من بريق الأبنية العالية، وإغواء الأضواء السّاطعة...

غير أن صرخات الحمداني لم تؤثر في قرارات قائد السرب، فبدأ السرب يتشكل في هيئة دوامة، ثم تشعث السرب، وبدأ الهبوط الكيفي على الأسطحة المجاورة.

• قليل من اللقالق هبط على سطح مبنى الجريدة،.. ثم... وبصورة مفاجئة بدأت أصوات الطلقات تتعالى من الجهات المعادية، وأصبحت الطلقة الواحدة تختزل المسافات

فيسقط الطائر مثل كرة عمياء، كأنما لم يكن لها بالتحليق والسماوات عهد و ابتهال، ثم تجاوبت جميع الأسطحة مع الحدث وبدأت الطلقات تحتدم وتنطلق من كل الجهات، وعندما أحس أفراد السرب بالاستقبال الغريب، وعرفوا طبيعة الثمن الفادح الذي دفعه رفاقهم من اللقالق المتسرعين، بدأت الغريزة تفعل فعلها، وليس التنسيق، وأصبح الخلاص الفردي هو السمة المسيطرة، وعمت الفوضى واستعاد الباقون أجنحتهم وقواهم وعادوا إلى التحليق من جديد. ثم اجتمعوا في الأعالي، وتشكلوا في هيئة سرب ضالٍ وحزين. سرب يتحرك مثل حلم دامٍ في مخيلة السماء، والملائكة الفزعين،

• خلال هذا الاحتفال الناري، سقط طائران على سطح مبنى الجريدة، فركض إليهما عبد القادر الحمداني، ومالك السعيد، وحمل كل منهما طائراً ونزلا بسرعة الدرج، متجهين إلى عيادة الطبيب في المبنى المجاور بغية الإسعاف والتضميد.

• بعد أيام، دعانا الزميل الكبير عبد القادر الحمداني إلى غرفته في الجريدة، وحدثنا عن نظرات الطائر المصاب

قبل موته، وكيف حقق له رغبته ودفنه بصورة طقوسية على قمة مرتفع ترابي، ليتمكن الطائر من تذكر السماء و الإصغاء إلى استغاثات الطيور العابرة الأخرى.

- وكيف يمكن للطير الميت أن يصغي للاستغاثات..

تساءلت الزميلة المحررة، عاتكة، بحيرة و ارتياب عميق.

- الذاكرة شيء لا يموت، ونبضها لا يفنى ولا يهون. وقد جمعتكم لأمر يتعلق بالطيور.

- وما هو..؟

تساءلنا مستغربين.. فقال:

- اللقالق التي نجت من الموت ستخبر جميع الطيور بالمحنة التي أصابتها في سماء حلب وستدفع جميع الأسراب لتغيير معابرها، وطرقاتها السماوية، ومن المؤكد أن سماءنا ستخلو من الأسراب، سوى من الذباب والبعوض، لأنها الأسراب الوحيدة التي تليق بنا، وبما يغالبنا من أيام وذكريات.

• ثم حدّق في برهتنا وقال: إذا كنتم تحتملون.. فأنا لا أحتمل سماء فارغة دون طيور لذلك قررت أن أخترع طيورا بديلة.. لأملأ الفراغ المريب.

- وكيف ستفعل..؟ وهل يمكن اختراع الطيور.

- سأكتب في اليوم الواحد، مقالتين، مقالة عصية ضالة سيرفضها رئيس التحرير، ومقالة أخرى أليفة متهافتة، سيوافق رئيس التحرير عل نشرها، والحفاوة بها، وفي غروب كل يوم.. سأصعد إلى سطح الجريدة حاملا معي المقالة الضالة وسأشكلها في هيئة طائر ورقي، لأطلقه في الهواء، لأعين السماء على تذكر الرفيف السالف و الرفيف النبيل.

ورغم أني موقن بأن الطائر الورقي سيسقط على الأرض دون طلقات، رغم ذلك سأطلقه.. فلا بد وأن يتعثر به مواطن مضطرب، وقد تسوّل له نفسه أن يفرد الطائر الورقي، و يقرأ ما فيه، ويشعر به، وقد تدفع الريبة الرجل العابر للعودة ثانية ليبحث عن طائر سواه، فإن راقت لكم الفكرة فعاضدوني، واكتبوا مقالين في اليوم الواحد، ولنصعد جميعا وفي وقت واحد على السطح لنقوم جميعا بإطلاق المقالات الضالة بعد أن نشكلها في هيئة سرب من الطيور الورقية التي ستتساقط عل الأرض دون مخاوف وطلقات، وقد راقت الفكرة لمعظم العاملين في الجريدة وقرروا من يومهم الصعود إلى سطح الجريدة عند الغروب لإطلاق الطيور الورقية.

بعد مدّة.. تحدث بعض العابرين في الأحياء المجاورة للصحيفة.. أنهم يرون كما يرى النائم،

أسراباً من الطيور الورقية، تعبر أحلامهم، فيركضون خلفها في محاولة منهم لإمساكها وقراءتها.. دون أن ينتبهوا إلى نثار الدم الخفيف على الريش وبين السطور.

• وهكذا وبسبب الزمان الطويل، تكاثرت الطيور الورقية، وتكاثر قراؤها الليليون وأصبح عددهم أكبر من قراء الجريدة المحلية الوحيدة التي تصدر كل صباح حزين.

❖ ❖ ❖

زميلتنا الرائعة عاتكة

(مقال داخلي)

زميلتنا الصحافية الشابة (عاتكة) تتمتع بطول محيّر، ونهدين عاصفين، وكتفين متأهبين، أما عن طولها المحيّر الذي لا يستطيع أحد تحديده فلأنها لا تستقر في مكان، لذلك يفتقر الناظر إليها لنعمة التركيز، وبخاصة عندما تكون الفتحة المجاورة لإبطها بعيدة مهوى القرط (كناية عن اتساع الفتحة وإثارتها).

زميلنا المحرر (عبد الفتاح نور الصباح). الذي ترك الكتابة وعمل في الأرشيف، يصف افتتاحيات رئيس التحرير، بأنها افتتاحيات بعيدة مهوى القرط. (كناية عن طول الافتتاحية وبعدها عن الواقع). وعندما يشاهد فتاة طويلة وجميلة، يقول عنها إنها فتاة بعيدة مهوى الساق، وذلك في محاولة منه لإبعاد شبح ساق زوجته عن مخيلته.

• أما زميلتنا عاتكة فهي فتاة مثيرة للجدل.. لذلك التفتت إليها الرؤوس، والأعناق، وكادت أن تهوي على صدرها، وتنام.

• ولكن العمل الجاد والتجهم الذي نعيشه في الجريدة، لا يسمح لنا بالذهاب إلى صدر عاتكة لنسارره وننام في ظلاله، لذلك تظل المحررة الشابة عاتكة، حزينة ومستنفرة، ولديها شعور جارف بالوحدة الشاسعة، والتجاهل. ورغبة منها في الخلاص من وحدتها وضلالها.. فإنها تدخل كل يوم إلى مكتبي لتصارحني قائلة:

- إذا كنت أنا المكشوفة العناصر والرغبات، حتى لتكاد الرقاب أن تصاب بانقراض الفقرات من وطأة الإلتفات إلي. إذا كنت أنما الفائقة الجمال مصابة بهذا القدر من الوحدة والهذيان، فكيف تحتمل النسوة الباقيات؟ ثم تضرب طاولتي بقبضتها فتتشوّش في ذهني الأفكار التي جمعتها للمقال القادم. وحين تجد عاتكة... الفرصة ملائمة للكلام تسألني:

- أخبرني، يا مالك الحزين، أخبرني عن الحل

• فألتفت إليها لأُحملق فيها دون أن أتمكن من إخبارها،

• وعندما تحس عاتكة باضطرابي وضياع أمري، تتابع:

- هل تصدق يا مالك الحزين ؟

• وقبل أن تكمل كلامها أقاطعها قائلاً:

- طبعا أصدق. حاولي أن تقولي كلاماً لا يقبله أي عقل أو منطق، وأنا مستعد لتصديقه لقد عودتني مقالات

رئيس التحرير أن أصدق كل شيء،... فخذي راحتك في الكلام والأوهام وسترين أنني لن أخذل يفاعتك وحاجتك، ولن آخذ ميلك الجارف للمبالغات مأخذ الشك والتجديف، وسأقبل كلامك وعناصرك دون تحليل أو تأويل.

• فتقول لي عاتكة بارتياب:

- غريب أمرك يا مالك الحزين.

- إن مالك الحزين يا عزيزتي عاتكة، لا يمتلك من أمره سوى الإصغاء لحزنه ومبالغات أصدقائه، أما إذا حالت الأحوال وتغيرت العقائد والأجرام وأصبحت رئيسا لتحرير هذه الصحيفة المحلية اللعينة، فأنا لا أضمن أن أمتلك الفراغ الذي يسمح لي بالإصغاء إلى نفسي، وتصديق أي شيء يجاورني حتى ولو صدر هذا الكلام عن محررة شابة مثلك، ومن نهدين يحركان المشاعر والأفلاك مثل نهديك.

- ستفعل كل هذا إذا أصبحتَ رئيسا للتحرير؟

- طبعاً.. إن منصب رئيس التحرير.. شيء لا أعرف كيف أصفه.

- أرجوك لا تذكرني برئيس التحرير.

- أنني أحاول أن أذكرك بما يفعله المنصب بالرجال الحالمين.

• في تلك اللحظة المضطربة، استدارت عاتكة وتقاطعت نظراتها مع نظرات السكرتيرة الجديدة (امتثال)، وصدرها الطافح المكين.

ولأن عاتكة تحس بالعلاقة القوية التي تربط بين السكرتيرة الجديدة ورئيس التحرير، فقد أحست بضرورة أن تتوقف عن متابعة الكلام.حتى لا تصل أفكارها إلى الغرفة المجاورة حيث يتربع رئيس التحرير. غير أن السكرتيرة الجديدة حاولت أن تؤكد أهمية حضورها، فسألت عاتكة:

- لماذا لا تريدين لأحد أن يُذكّرك برئيس التحرير يا آنسة؟

• وكان السؤال مفاجئاً، واضطرت عاتكة أن تحرك أصابع كفيها بغضب، ثم نظرت بارتياب، إلى وجه السكرتيرة الجديدة الناصع وخديها العامرين وقالت لها:

- أية امرأة مثيرة لا تقرأ افتتاحيات رئيس التحرير من حقها أن تسأل:

مثل هذا السؤال العميق..

• وكان الوضع ينذر بهبوب عاصفة عاتية، لذلك نهض مالك الحزين من مكانه و أغلق النافذة، ولم ينقذ الوضع من التفجر والغليان سوى جرس رئيس التحرير، الذي اقتلع السكرتيرة الجديدة من مكانها، فنهضت والتمع طرف ساقها المكشوف بعد أن حررته من خلف الطاولة ثم قالت:

- عن إذنكم...

بلهجة حادة اضطرب لها زجاج النوافذ المجاورة.

• حين خرجت السكرتيرة

شعرَ مالك الحزين بأحزان عاتكة، وتقلبات جسدها وروحها، فتأملها وقال:

- الجلوس أفضل لمن هم بمثل انفعالك و جمالك.

• لذلك وبدون مقدمات وقعت عاتكة على الكرسي، ونزلت على خديها دموع تودي بالملائكة والصدِّيقين. كنّا نعتقد لزمان طويل أن الدموع من عناصر ومياه غريبة لا تخص عاتكة، ولا تطال ملامحها. فالدّموع الجائرة، تهدل الروح و النهدين، ونهدا عاتكة كائنان عصيان على التهدل، ينحدران من روح صلبة، لذلك يتركان فوق موضع الحلمتين نقطتين رطبتين من الجوع الفادح و الحليب العميق... أما أن تقع عاتكة على الكرسي وتقع إلى جوارها دموع لا طاقة لأحد بها فلا بدّ وأنّ في الأمر أسئلة كثيرة وزمان ضنين.

• وقد فعلتها عاتكة، وفضحت السرّ حين رفعت كفها وحركت أصابعها وقالت بحزن:

- بهذا الكف صفعت صباح اليوم... زكريا. المصوّر الرئيسي للصحيفة.

• رد مالك الحزين على كلام عاتكة بإعجاب:

- وما المانع يا آنسة، زكريا زميل طموح ومتماسك، وهو جدير بالصفعات و بخاصة إذا كانت الصفعة من كف طافح بالحكمة و الأنوثة مثل كفك الجميل.

- أنت تحاول أن تخفف عني يا مالك الحزين.

- أبداً أنا أحاول أن أتخيّل المشهد لحظة وقوعه، لكن لا بد من طرح سؤال.

- وما هو؟

سألت عاتكة باستعجال:

- لماذا حصل ما حصل؟

• قالت عاتكة:

- الموضوع طويل، ومفكك، ولا أرغب الخوض في التفاصيل.

- أرجوكِ أخبريني... فمالك الحزين يرغب أن يغيّر طبيعته ليكون مالك التفاصيل..

وبذلك يكتمل ريشه ويتفاقم بلله وطول ساقيه.

• ثم امتدت يد مالك الحزين إلى صندوق المناديل الورقية التي يكتب بعض مقالاته عليها، وسحب منديلاً وناوله لعاتكة... فمسحت الماء الذي ينغصها، ثم جلست

ووضعت ساقاً على ساق.. وبعد صمت... وانحسار عميق انتبهت عاتكة إلى نظرات مالك اللئيم...فحاولت إنزال طرف تنورتها إلى الأسفل، غير أن القماش المتماسك لم يساعدها على إخفاء ما يختزنه جسدها من فتنة وبريق.

❖ ❖ ❖

• كانت عاتكة تداوم على زيارة مالك الحزين في مكتبه يومياً، بوصفه زميلاً..كبيرا، وأستاذا... وكانت تقرأ بعض نوازعه وأهدافه تجاه حضورها. وكان هذا الأمر يريحها .

• فعندما لا يتاح لفتاة مثل عاتكة، أن تكشف عن خبايا نفسها وتقلبات مواجدها، فمِن الواجب عليها أن تكشف عن خبايا جسدها و فتنتها، ليلتفت الناس إليها.

• كانت عاتكة تتحرك ضمن مساحة مملوءة بالغرابة والمحاذير... فأمام البيت البعيد الذي تسكنه... كلب، وخلف الكلب مقبرة، وحين تحاول الوصول إلى الشارع العريض تضطر لعبور المقبرة والكلب. في الذهاب والإياب، وهذا العبور الدائم يدفعها للريبة والاضطراب، فيضطرب نهداها معها. وتتوثب نظراتها وتكاد أن تقع من الإعياء.

• وعملها في الصحافة يدر عليها الكثير من الاهتمام، وعندما تطالب المهتمين بتجاهل جسدها والانتباه إلى الزوايا

الاجتماعية التي تكتبها في الصحيفة ، يعتذر الكثيرون عن المتابعة بسبب المشاغل، وضغط الواجبات.

• عندما تصل إلى مبنى الجريدة يستقبلها الحارس أبو المجد، بابتسامة عريضة، ونظرات ضارعة...وبسبب مخيلتها النشطة، ترفع رأسها إلى مبنى الجريدة، ونظرات الحارس ثم تقول:

- هاهي المقبرة... فأين هو الكلب؟

ثم تمضي مستعجلة الخطوات في الممر الطويل

❖ ❖ ❖

- لذلك صفعتُهُ.

- صفعته مرّة ثانية؟

يسأل مالك الحزين مستغرباً.

- لا... إنها المرّة ذاتها.

- وكيف؟

- عندما دخلت مبنى الجريدة صباحاً، اقترب مني زكريا المصوّر فرحاً، وصاح أهلاً عاتكة... لقد قرأت البارحة

زاويتك الأسبوعية، هل يمكن أن ترفعي ذراعك لأتأمل أطراف نهدك الجميل. ولأنه تجشم عناءً غامراً، وقرأ مقالة البارحة التي كتبتها. فقد رفعت كفي وأصابعي وأهويت على صفحة وجه زكريا الحليق، لأكتب عليه مقالة يرددها الجميع طوال الأسبوع.

• عندما تمت الصفعة بنجاح وترددت أصداؤها في بهو الجريدة، انتبه الحارس، وتقدم محاولاً التدخل، دفاعاً عن عاتكة، لكن زكريا غطى بكفه احمرار خده وهرول إلى منعطف مجاور حتى لا يلمح نفسه، وحين ابتعد.. وجدت عاتكة نفسها عنيفة ووحيدة فوقعت على الأرض.

- بعد مدّة من الصمت والانفعال.

سألها مالك الحزين بغتة:

- هل تذكرين موضوع المقالة؟

- كانت المقالة تتحدث عن الطرق والأساليب التي تدفع المرأة في مجتمعنا، للقيام بالمزيد من المبادرات.

- وها أنتِ نجحتِ وتحققت المبادرات.

- وكيف؟

- من خلال الصفعة.

• ثم نهض مالك من موضعه وصاح:

- شيء عظيم يا عاتكة، شيء رائع يا زكريا.

لقد قمتِ بفعل عاصف ونبيل يا عاتكة عندما رفعتِ ذراعك وكتبت تعاليمك ووصاياك على وجه زكريا الحليق... ولكنك تسرعتِ قليلاً.

- ولماذا تسرعت...(تساءلت عاتكة بتعرق واندهاش) وما الذي يمكنني أن أفعله للتكفير.

- اذهبي إلى زكريا واعتذري منه، وعندما تلمحين منه تجاوباً واستسلاماً عِديه بأنك ستمنحيه فرصة لقراءة مقالتك القادمة مع ما يحتمله جسدك من فتنة وتفاصيل.

- وإذا تعنت ورفض المصالحة والحوار؟

- حاولي معه ثانية وثالثة، وإذا لم يفهم، ولم يستجب، عند ذلك ارفعي ذراعك واكتبي على الطرف الآخر من وجهه، مقالك الجديد، حتى يشعر بالتوازن والارتداع. وليكن صوت الصفعة الثانية معتدلاً حتى لا يصل مضمونه إلى أذني رئيس التحرير.

• خلال فترة انهماك عاتكة ومالك الحزين في المداورة والمناورة والتحليل، دخلت السكرتيرة الجديدة، وقالت:

- الجميع مدعوون إلى الاجتماع الأسبوعي مع الأستاذ رئيس التحرير.

- ومتى سيحصل هذا الحدث الفريد، تساءل مالك الحزين.

- بعد عشر دقائق.. أجابت السكرتيرة، ويدها على ساعتها.

• لذلك رفع الجميع أيديهم إلى ساعاتهم وحركوا عقارب التنبيه حتى يصدر الرنين الجماعي في وقت واحد، وقد تجرأ مالك الحزين عندما انتهى من ربط عقربه، فقال:

- إذا لم تلدغنا عقارب الزمان، فليس بوسع شيء آخر أن يوصلنا للتسمم العظيم، وسنتحول إلى نوع غامض من العظايات والصحف السوداء والبشر الذاهلين.

• بعد ذلك تناست عاتكة ما ينغص وجه زكريا من صفعات وملاحظات. وتذكرت أهمية أن تلتقي بالسيد رئيس التحرير، وتكون أمام حضرته في وضعية الإصغاء للملاحظات والأفكار التي تصدر عن منصبه البليغ. فالاجتماعات الدورية شيء رائع لأنها تسمح بتقويم سياسة الصحيفة، واستبعاد الأفكار الجديدة، والحفاظ على الأسلوب الراسخ المكين... مما يؤدي إلى انهيار القرّاء وتماسك الجريدة واحتقان المحررين.

• في الجريدة. غرفة للاجتماعات، وفي وسطها طاولة عريضة، تسمح بتبادل النظرات والهمسات، والحيطة والمحاذير.

• لذلك كانت عاتكة تحس بلذة غامرة وهي تدخل قاعة الاجتماع.

• في قاعة الاجتماع يحاول مالك الحزين أن يقعد في الطرف المقابل لرئيس التحرير، فهو

يحس أنه الأجدر باستلام المنصب منه، فلقد عملا هو ورئيس التحرير الحالي ورسما الخطط و المكائد للتآمر على رئيس التحرير السابق، لعزله، و الحلول محله، وقد نجحا في الإيقاع به بسبب محاولاتهما الدائمة لتسريب بعض الحقائق في المقالات اليومية و الأسبوعية التي يكتبانها. مما استنفذ صبر السلطات، فتدخلت وتم تغيير رئيس التحرير، وعوضا عن وضع (مالك السعيد) رئيساً للتحرير، تم تنصيب، (عابد الرصيف)

في هذا المنصب، فتفاقم غضب مالك السعيد، وقرر الانتقام، وعندما جاءت ظاهرة سرب اللقالق وأصوات الطلقات، انضم مالك السعيد إلى المحررين الآخرين وبدأ إطلاق طيوره الورقية بنشاط، ثم قرر أن يبدل اسمه فصار يوقع مقالاته باسمه الجديد (مالك الحزين).

❖ ❖ ❖

- هل تعرف؟. اسم مالك الحزين فيه إثارة وجاذبية.

تقول عاتكة ذلك، بعد أن تجر كرسياً وتقعد إلى جانب مالك الحزين، لتتمكن من مشاهدة رئيس التحرير وجهاً لوجه. حتى لا تُضيّع حركة أو لفتة تصدر عنه.

• رئيس التحرير الجديد يحس بالمنغصات التي تصيب مالك الحزين صديقه السابق، فيحاول أن يحتمل تطرّفه وملاحظاته، بروح متفهمة وانتباه عميق.

• حين قعد الجميع كان المستخدم قد وضع أوراقاً فارغة وأقلاماً ليستخدمها المحررون في تدوين النصائح والتعاليم.

• بعد برهة دخل رئيس التحرير ودخلت خلفه السكرتيرة الجديدة امتثال، ترافقها فتحة صدرها البليغة، فنهض الجميع من وطأة الإثارة، وغمرتهم الابتسامات، ثم قعدوا على كراسيهم بابتهال وترقب وبخاصة عاتكة، التي خرجت يدها عن سلطتها، وبدأت تكتب:

- هذا هو رئيس التحرير فأين هي المقبرة، ثم قربت الورقة من مالك الحزين ليقرأها، فقرأها وأضاف...

• هذا رئيس التحرير فمتى سيكون التحرير.

- أنت تميل للمبالغة (كتبت عاتكة).

- أنا أميل إليك (كتب مالك الحزين).

• وقبـل أن تـتمكن عاتكـة مـن قـراءة مـا كتـب مالـك الحـزين.. فـتح البـاب، ودخـل قطـب الأخبـار مـستعجلاً، حيّـا الجميع بانحنـاءة خاطفـة وتـسلل إلـى جهـة عاتكـة وقعـد إلـى جوارها وتأهب لكتابة ما يقوله رئيس التحرير.

• حـين قربـت عاتكـة الورقـة وقـرأت مـا كتبـه مالـك الحـزين. انفـرج سـاقاها عـن ابتـسامة واسـعة، فارتطمـا بـالزميلين المجاورين، مالـك الحـزين وقطـب الأخبـار (شـعبان العسير) فالتفتا معا إلى وجه عاتكة.

• مالك الحزين، ابتسم بامتنان.

• قطب الأخبار... فرك عينيه بغرابة.

ثم ارتـدا معـا إلـى جهـة رئـيس التحريـر، وفي سـاق كـل واحد منهمـا، مـن طـرف عاتكـة، مـا فيـه مـن الانفعـال المقـيم. خـلال كـلام رئـيس التحريـر.. يحـاول قطـب الأخبـار متابعـة الكتابة والتدوين، وأحياناً يميل رأسه إلى عنق عاتكة ليسألها عـن كلمـة فاتتـهُ، ولـم يـتمكن مـن تـسجيلها بـسبب اسـتعجال رئيس التحرير.

وقـد ظنـت عاتكـة أن محـاولات إلتفـات شـعبان العـسير إليهـا تـدل علـى اهتمـام بليـغ بحـضورها،لـذلك بـدأت عاتكـة بالتقبل و التجـاوب، وأصـبحت تهـتم بمفـردات الكـلام، ولـيس بالمعنى العام حتى تتمكن من سد الثغرات التي يعاني منهـا

قطـب الأخبـار... ولتقـدم لـه الكلمـات الناقـصات في الوقـت المناسـب مـع مـا ينقص كل كلمـة مـن حـرارة ولهـاث، غيـر أن عاتكـة وبعـد مـدّة مـن المتابعـة والـتلقين، اكتـشفت أن قطـب الأخبـار المجـاور، صـار يـستقبل الكلمـات الناقـصات مـن فـم عاتكـة دون أن يلتفـت إليهـا، لـذلك شـعرت أن مـا يـشغل بـال الزميل هو كلمات رئيس التحرير فقط، وليس عنقها و حرارة لفتاتها، لـذلك كـان ضـروريا ً أن تغمـر عاتكـة، أمـواج مفاجئـة من التشتت و الأحزان، فالتفتت إلـى رئـيس التحـريـر وكلامـه، وانهماك الزميل المجاور بالمتابعة والتدوين، وصرخت:

- أستاذ عابد، هل تسمح بسؤال؟

• فاستدارت الرؤوس بغتة، إلى وجه عاتكة ونظرت إليها باستغراب.

ورغـم أن رئـيس التحـريـر بوغـت بالمقاطعـة، لكنـه ابتـسم متصنعاً الهدوء و الرحابة، و قال:

- تفضلي، تفضلي آنسة عاتكة و اسألي ما تشائين.

• قطـب الأخبـار. لـم يحتمـل مقاطعـة عاتكـة لمـسيرة الاجتماع فقال منزعجا ً:

- أسـتاذنا الكـريم، نحـن منـشغلون الآن بمـا هـو أهـم، ويمكن تأجيل الأسئلة حتى نهاية الاجتماع.

• لذلك صار مناسباً أن تلتفت عاتكة إلى الزميل المجاور لا لتصفعه كما فعلت مع المصوّر زكريا، وإنما لتطلق إلى جهته نظرتين مدويتين كادتا أن توقعاه تحت الطاولة.

• وقد شعر رئيس التحرير باضطراب عاتكة.. فقال ليحثها على المتابعة:

- أحيانا تلح علينا بعض الأسئلة، بصورة لا ينفع معها أي تأجيل.. وأنا أفهم دوافع الآنسة عاتكة. لذلك أرجو أن تتفضلي بالسؤال.

- معك حق يا أستاذ.. هز قطب الأخبار رأسه مؤكداً.

- سؤالي غريب بعض الشيء يا أستاذ. قالت عاتكة بارتباك.

• رد مالك الحزين فقال:

- الأسئلة الغريبة تساعدنا على البقاء أحياء.

ثم التفت إلى قطب الأخبار ونظر إلى جهته بانقباض. مما دفع رئيس التحرير للتدخل.. فهز رأسه بتفهم من جهة عاتكة وابتسامة صفراء من جهة مالك الحزين.

• فاندفعت عاتكة لاستثمار الفرصة وسألت:

- أستاذ عابد.. كم رئيساً للتحرير نحتاج. ليتحرر الناس من الوحدة والخوف والبرد.

• أجاب رئيس التحرير على سؤال عاتكة بسؤال:

هـل يمكـن أن توضـحي لـي الـدوافع لطـرح مثـل هـذا السؤال؟

• كانت عاتكة تعيش حالة من التخبط و الهباء، لذلك تنهدت و أجابت:

- لقد طرحت السؤال لأسباب شخصية، فقرب بيتي مقبرة، وقرب المقبرة كلب، وأنا أشعر بالوحدة، والبرد، لذلك أتساءل، لماذا تمتلك القبور حرية التحديق والعواء، ويصمت الناس و المحررون ويؤجلون أسئلتهم حتى نهاية الاجتماع.

• مداخلة عاتكة وبهذه الصورة الموحشة، أفزعت رئيس التحرير، فحاول أن يرمم ما حصل، لذلك بدأ يتحدث عن الجسور.

- يجب أن لا نستسلم للوحدة والأحزان، وعلينا أن نقيم جسوراً مع الناس حولنا، واستدار إلى السكرتيرة المجاورة، وإلى فتحة صدرها البليغة ليستلهم منها العزاء، وكاد أن يسألها عن نوع الإسمنت الذي تفضله ليقيم جسراً بينهما، ثم تابع الكلام

- أن صحيفتنا يا آنسة ليست سوى جسر قائم بيننا وبين الناس، والجسور ضرورية شرط توفر الناس والأقدام

الكافية للعبور.. ثم تباسط رئيس التحرير في الكلام، وبدأ يحكي للحاضرين عن فلسفة بناء الجسور التي يؤمن بها..

- عندما لا يكون الجسر موجوداً علينا أن نتخيله ونسير عليه، حتى نمنع الشكاكين من العبور.

• لذلك يجب علينا أن ننتبه إلى معنى الجسر وليس إلى حجمه وكثافته، حتى لا نوقع أرواحنا في الشبهات. إن الجسر التي تبنيه الحكمة، أهم وأقوى من الجسر الذي تبنيه الأكف والحجارة و الرافعات.

• وهكذا انشطر الحاضرون إلى فريقين، فريق خائف على مصير رئيس التحرير،وفريق آخر معجب به بسبب جرأته.ثم تجرأ مالك الحزين وبدأ بالتصفيق.

• فانفعل الجميع، ونهضوا لتهنئة رئيس التحرير على صراحته وعمق نظراته، وتفرغه الدائم لبناء الجسور.

وانتهى الاجتماع دون أن يتم الخوض في الأمور الهامة التي تتعلق بعمل الجريدة وسياستها وأنواع الجسور التي ينبغي على المحررين تشييدها.

• بعد أيام، وبينما كانت عاتكة منهمكة في جمع المادة المتعلقة بصفحة المرأة وصلها كتاب رئيس التحرير، وفيه حديث عن المصلحة العامة وضرورة الميل للتخصص لذلك

اقتـضت الـضرورات الموضـوعية نقلهـا مـن قـسم المـرأة والمجتمع...

إلى قسم الإعلانات و الوفيات في الصحيفة. وفي الكتاب إشارة جريئة، تقول:

إن وجـه المـصور زكريـا لـيس صـفحة المجتمـع لتقـوم بتحريرهـا مـن خـلال الصفعات.وقد بوغتت عاتكة وأعـادت قراءة القرار ثلاث مرات.

ثم نهضت عاتكة بانفعال، وذهبت إلى رئيس التحرير، وطلبت منه إيضاحا.

• بعد انتباه طويل، وإعادة لقراءة القرار، رفع رئيس التحرير رأسه ونظر في وجه عاتكة وقال:

- لقد تحدثت في الاجتماع الأخير عن مقبرة.

- نعم... وقرب المقبرة كلب، لكن هل يستدعي ذلك أن أنقل إلى قسم الوفيات

- إن قسم الوفيات يا آنسة هو القسم الوحيد الجدير بالاحترام في صحيفتنا. ثم صمت رئيس التحرير. وتابع كتابة مقاله اليومي.

• حين انتشر الخبر... ذهب مالك الحزين إلى مكتب عاتكة فوجدها خلف طاولتها تحدق في الموت و أوراق النعي فتأملها وامتدت يده إلى أوراقها، ورفع ورقة وقرأها، وابتسم

- حتى الموت غزته الأكاذيب.

- ولكنه قال: بأن قسم الوفيات هو القسم الوحيد الجدير بالاحترام في الجريدة، تابعت عاتكة الكلام.

- رئيس التحرير على حق.

- وأنـا.

- أنت على جمال عظيم. لذلك تقهرين الموت حين تقفين إلى جواره.

• ثم حمل مالك الحزين عدداً من أوراق النعي الأخرى وتأملها.

- يا لبلاغة الموت، وتهافت نصه، إننا نعيش الآن على الحافة وليس سوى قبضة واحدة من الهواء تدفعنا، لنتحول إلى طيور معلقة على الجدران. ثم ألقى الأوراق فاضطربت وتحركت كل واحدة في اتجاه. ومضى. وكادت عاتكة أن تتبعه، لتدعوه للهرب من الجريدة، والذهاب بعيداً لشرب فنجان قهوة لكنه غاب كأن لجة ابتلعته، لذلك انصرفت عاتكة للتأمل، وبدأت أصابعها العبث بالأجساد الميتة لكومة الأوراق على طاولتها، ثم أمسكت القلم وبدأت الكتابة.

مقبرة من أوراق النعي والتعازي تملأ طاولتي وتحدق فيّ. ومقبرة قرب بيتي وأنوثتي وكلب وحيد يجاور خطواتي، ولا يخطر بباله أن يعوي من أجلي. فلا نامت أعين رؤساء التحرير.

• وكادت أن تذهب بعيداً في الكتابة لتقلّب الموت والمقابر والصحف على كافة الوجوه والأيام، ولكن صوت الهاتف المجاور وصلها فامتدت يدها، وتحركت روحها، وحين سمعت الصوت، نهض نهداها إلى ذروة الحياة والانتصاب. لذلك ألقت بالقلم، وامتدت يدها إلى الورقة التي تكتب عليها، فقوضتها، وبحركة سريعة ألقتها في السلة، ونهضت. وفي الممر، رأت مالك الحزين، فصاحت بمرح:

- أين ذهبتَ، لقد فكرت بدعوتك لشرب فنجان من القهوة بعيدا عن الجريدة

- فنجان بعيد..؟.. إنني متفرغ لمثل هذا الفنجان.

- أما أنا فلم أعد متفرغة.

- ولماذا؟

- صديق قديم اتصل بي.. وسرق فنجانك، وها أنا ذاهبة لأشربه معه أيها العجوز.

- يجب الحذر في مثل هذه الحالة.

- ولماذا؟!

- لأنني لا أثق كثيرا بالذين يسرقون الفناجين

- لا تخف علي من هذه الناحية.. ثم سارعت باتجاه الباب

- انتظري.. أخبريني ماذا ستفعلين بالشاب

- سأحاول أن أبني بيني وبينه الجسر الذي تحدث عنه رئيس التحرير .

(مقال داخلي)

أستاذنا الحمداني

تحقيق أولي

عندما كنا متحلّقين في غرفة المستودع أمام حارس مبنى الجريدة. أبو المجد، المكلَّف بحراسة المبنى، إضافة إلى توزيع المواد التموينية شهرياً، لاحظ الجميع محاولاتٍ للدفع وعدم التريث تصدر عن الأستاذ عبد القادر الحمداني، وهو أكبر المحررين في الصحيفة مكانة وسناً، وله حضور وتأثير في الحياة الثقافية في المدينة، وله إسهام كبير في تحرير الصفحة الثقافية في الجريدة، ولعل أهم ما يميز الأستاذ الحمداني، رصانته وصمته، والتشجيع الذي يقدمه للقاصي و الداني، وللكبير والصغير، غير أنه في ذلك اليوم بالغ كثيراً في استثمار مكانته وأدَّت مدافعاته العنيفة إلى تشتت الطابور، فاضطربت الآنسة امتثال سكرتيرة رئيس التحرير ووقعت على طرف كومة من أكياس السكر. وكان وقوعها مؤثرا وفاضحاً.

• لذلك نسي العاملون في الجريدة السكر والرز والتفتوا إلى الجسد المسجى ذاهلين و أمسكوه من مواضع الإثارة و الشهقات و أعادوه إلى جادتي الصواب و الانتصاب، ثم التفتوا إلى الأستاذ الجليل غاضبين وتابعوا الالتزام بالطابور، وقص القسائم واستلام الأكياس، ورغم ذلك لم يكن الأستاذ عبد القادر الحمداني ليتراجع وإنما تابع الهجوم و الاختراق حتى وصل إلى الحارس أبو المجد، فألقى أمامه القسائم المطلوبة وقبض على كيس جاثم من السكر ثم هرول إلى الممر الطويل، وقعد على الأرض، وفتح كيس السكر وغرس أصابعه فيه، وبدأ يغرف ويلتهم بنهم، أثار انتباه الجميع.

• في المكتب والممرات، بدأ الهمس والتلميح، والأستاذ عبد القادر الحمداني قاعد في الممر يتابع الاغتراف والبلع حتى كاد أن يودي بنفسه وبالكيس.

• عندما وصلت الأخبار إلى أذني مالك الحزين، اعتبر أفعال صديقه الحمداني المنافية للحشمة ومدافعاته في الطابور، وميله المفاجئ للسكر. محاولات تصيب بعض المسنين، الذين تضطرب أيامهم ومقاديرهم فيرتدون بأحلامهم وذكرياتهم إلى الطفولة البعيدة، حيث كان السكر هو الفرحة الوحيدة، وهو العيد. غير أن الانكفاء إلى الطفولة، مسألة ليس لها مبرر، حالة هروب من هذا الزمان

قد يسيء المعنيون فهمها، فيحاولون الإيقاع بصاحبها، ورغبة من مالك الحزين في وضع الأمور عند حدِّها، ذهب إلى الممر وفي نيته أن يتدخل لإيقاف أمواج الحنين إلى الطفولة التي تنتاب المحرر الكبير،

• حين اقترب مالك الحزين من الحمداني، انحنى إليه وانقضَّ على كيس السكر منتزعا إياه من يدي الرجل وحضنه ودهشته، ثم نظر في وجهه برثاء وقال:

- أنت تحاول أن تقتل نفسك.

- ألا يحق لي أن أفعل. قال الحمداني جملته وهو يلحس طرف كفه من ذرات السكر التي علقت به.

- يحق لك.. لكن ليس عن طريق السكر.

- وهل تريدني أن أقتل نفسي عن طريق رئيس التحرير

- هذا أضعف الإيمان وأحسنه وأكثره دفعاً للأخطاء والمحاذير.

• عند ذلك نهض عبد القادر الحمداني من أرضه... ودون أن ينفض حبات السكر عن أطراف فمه وكفيه وثيابه... صاح:

- هاتِ السكر.

وانقض على مالك الحزين...

• وبعـد شـد وجـذب وتقـدم وتراجـع. تمـزق الكـيس. وتناثرت حبيبات السكر و ملأت الأرض لذلك لم يكن ممكناً أن لا ينفلت جسد الأستاذ الجليل و يرتطم بالجدار وينسدل على الأرض مرّة ثانية، بالتياع وهم مقيم.

• خلال ذلك عبرت عاتكة... وانتبهت.. ثم صاحت بفرح طفولي:

- سـكر على الأرض؟. متى سيصل السكر إلى دماء رئيس التحرير. وكان معها بعض الحق

فبعـد أن أسـند لهـا رئـيس التحريـر مسؤولية صـفحة الوفيات انفعلت..

ثم عبرت السكر وطارت.. كما تفعل الحمامة المطوقة عندما تقف على شرفة مملوءة

بالحذر والصيادين.

• بعد الذي جرى نهض الحمداني منفعلاً، وذهب إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب.

في محاولة واضحة منه للاحتجاج. فتبعه مالك الحزين وحاول الدخول.. لكن الباب كان مغلقاً وعندما يشاهد مالك الحزين شيئاً مغلقاً، تتنابه الظنون فيرفع قدما وينزل أخرى كأنما هو واقف على تخوم ماء ضنين. بعد فترة من الوقوف، أحـس مالـك الحـزين بـأن الـصحفي الجليـل عبـد القـادر

الحمداني يغلق الباب دونه ليشده إليه وليس ليبعده عنه، لذلك طرق الباب ثانية، ثم انحنى وقرّب فمه من ثقب الباب وصاح:

- يا حمداني.. يا حمداني.. الروم على التخوم.. وأنا وحدي من يقف بالباب ويناديك.

وعندما لم يصله جواب همس ثانية:

- إن لم تفتح لي.. فسأقع أمام الباب ولن تراني بعد الآن.

• ثم سُمِعَ صوت، وفُتِحَ الباب، ودخل مالك الحزين ليرى أمامه كائناً أطول منه وأكثر تشوشاً واغتفاراً.

- لماذا فتحت؟ يا حمداني.

- قلت لنفسي.. لو أنه لم يَحُلْ بيني وبين السكر لما رآني.

- أنت تذهب بعيداً يا حمداني .

- ليتني أقدر أن أفعل.

- أخبرني عن نفسك.

- إنني لا أقدر على نفسي... لذلك فتحت لك الباب حتى تخبرني عنها.. لقد أفسد كل منا الآخر، ولم نعد جديرين بطفولة نسيناها.. وسكر أخلصنا له وأخلص لنا..

إنني أشعر بالتورم والغبش الكثيف، وأكاد لا أميز بينك وبين رئيس التحرير. ومع ذلك فتحت لك الباب لأخبرك. فلقد قررت الاعتصام بالجريدة، لا أكلم أحداً ولا أرى أحداً ولا يراني.

- تعتصم في مقر الجريدة. إنها محاولة للإضراب؟

- الإضراب حق، وأنا أطالب ببعض الحقوق.

- وأنا أخشى أن يسيء الناس فهمك.

- وهل يمكن إساءة فهم رجل مسرع إلى الموت مثلما يسرع طفل صغير إلى السكر.

- إذا كنت على هذا القدر من الاستعجال، فأنت من يسيء فهم الناس وليسوا هم .

- فماذا تقترح علي؟

- أقترح عليك أن تتوقف عن الإضراب.

- وكيف للإنسان أن يتوقف عن حق من الحقوق .

- لقد وُجِدتْ الحقوق يا حمداني لنتوقف عنها وليس لنطالب بها... الإضراب حق ضئيل فلا تحاول أن تقايض به حقاً عظيماً.

- فما هو الحق العظيم.

- الحياة.. فلا تدمرها في المرات .

- أنت تتحدث عن الحقوق كما يفعل رؤساء التحرير.

وكـان الحمـداني في هـذه الحمـأة، متـورم الوجـه والظنون، لذلك سأله مالك الحزين:

- أليس البكاء أكثر بلاغة لمن هم في مثل حالتك؟

- البلاغة والبكاء، يحققان أهداف الأعداء، وقد أنجزت منهما الشيء الكثير

- فما هي مطالبك؟

- مطالبي بسيطة، ومتهاونة، مثل حياتي ومقالاتي .

- أخبرني عنها، وسأسعى لتخليصك منها .

- أريد أن يعقد رئيس التحرير اجتماعاً عاماً، يضم جميع العاملين في الصحيفة، وفي الاجتماع سألقي بياني الختامي، ثم أنسحب من الحياة إلى أبد الآبدين ، لأتمكن من تحرير صحيفة في الجحيم.

- هل تعتقدهم يوافقون على إصدار مثل هذه الصحيفة هناك؟

- ولماذا لا يوافقون، ولدي من الخبرة التي اكتسبتها هنا. ما يمكنني من تحريك الطواحين..

❖ ❖ ❖

• كان الخيار الذي أوقعني فيه شيخ محرري الصحيفة، صعباً غير أنني وقد تعلمت منه صياغة الخبر والتحقيق، وإخفاء الرأي والتهاون مع الرؤساء، وتغطية الحقائق وازدراءها فقد قررت أن أتعاون معه، لأوصله إلى النهاية التي ارتضاها، وهي تحرير صحيفة وحيدة في الجحيم. لذلك رفرفت بجناحي متحمساً وذهبت قاصداً غرفة رئيس التحرير. وغرفة رئيس التحرير شيء باهر وكتيم. وفي صدرها طاولة واسعة يستوعب سطحها جسدين عاشقين لحظة تبادل العناق والتواقيع. أطرافها حادة في هيئة صحيفة فارغة تنتظر من يكتب عليها نصه الطويل الذي يشبه سلسلة طويلة من المقالات والمواطنين الحزانى الذاهبين إلى الطبع والتنضيد هكذا الطاولات وإلا فلا ... طاولة تصدر من على سطحها أهم القرارات، تخرج أول الأمر في هيئة أفكار مشوشة من رؤوس المحررين ثم تتحول الأفكار إلى ذباب غائم ما يلبث أن يرف بهدوء ودعة في غرفة رئيس التحرير.. ليحط بعد ذلك في مواضع متباينة من سطح الصحيفة والطاولة و أحداق المحررين.

• الدخول إلى غرفة رئيس التحرير يستدعي المرور قرب السكرتيرة الخاصة الجديدة التي تقعد في غرفة مالك الحزين وتشرف على تحركاته. لذلك عندما دخل مالك

التعيس إلى غرفته وانعطف إلى الباب المجاور للسكرتيرة الجديدة امتثال، لمح طرف ساقها البليغ المكشوف فانتبهت إليه و ارتعدت من نظراته وأخفت ساقها خلف الطاولة، ثم نظرت إلى مالك الحزين بغرابة و سألت:

- إلى أين؟

- إلى السيد رئيس التحرير .

- يجب علي أن أبلغه أولاً .

- يمكن إبلاغه بعد أن أدخل إليه، ويمكن الإشارة إلى دخولي في تقريرك اليومي، ثم أمسك مالك الحزين أكرة الباب ودفعه وصار داخل الغرفة وحين تأمل الطاولة العظيمة لم يكن يرى عليها سوى ساق السكرتيرة الجديدة، هذه الساق التي تمددت في طول مخيلته وعرضها وكادت أن تحجب عنه رئيس التحرير. وكان رئيس التحرير قاعداً يدبج مقاله اليومي:

- جئتك في طلب ملح وعاجل، قال مالك الحزين.

- طلباتك أوامر أخي مالك السعيد فتفضل.

- ألم يصلك قراري بتغيير الاسم وتحويله إلى مالك الحزين؟

- الاسم مثل الحياة يمنح مرّة واحدة، ولا يجوز تغييره. وأنا لست ملزماً بتنفيذ قراراتك.

- معك حق، أنت رئيس التحرير، ونحن من ينفذ القرارات.

- لقد قصدت شيئاً آخر .

- وما هو ؟

- قصدت أن أقول لك الجملة الهائلة (أما أنا فلا أخلع صاحبي).

- لقد فعلها ابن العاص، وخلع مبدأ التحكيم برمته... فهل تحاول مثله؟

- إنني أحاول أن أحتمل زماني.. فلا تحاول معي.

ثم أهوى رئيس التحرير بالمذبة التي يحملها فانسحقت ذبابة على وجه الطاولة، وحين اقترب مالك الحزين من الوجه وجد عليه مجزرة من الذباب المقصوف يعده رئيس التحرير ليحوله إلى مقالة افتتاحية لعدد الغد.

- دعنا من التحكيم ونتائجه، وأخبرني عن حالك.

- صديقنا وأستاذنا الحمداني يعيش أحوالاً صعبة، وقد التهم كيساً من السكر ليتمكن من التعبير، عن رأيه ثم قرر إعلان الإضراب في مقر الجريدة، وبأنه لن يكلم من الناس أحداً.. إلى أن تصَّاعد روحه إلى السماء.

- هذا يعني أن أوضاعه وصلت إلى الطريق المسدود.

- وقرر أن يخلع نفسه وليس صاحبه فحسب .
- والحل؟
- أن يتم قبول مطالبه .
- وما هي؟

❖ ❖ ❖

• ثم كانت حركة وانتشار، وتقرر إعداد غرفة الاجتماع بسرعة، بعد أن استجاب رئيس التحرير لمطالب شيخ المحررين عبد القادر الحمداني، بمنحه فرصة للإدلاء ببيانه الختامي

❖ ❖ ❖

• والدعوة للاجتماع العام وفي غير موعده، تثير اضطرابا و تساؤلاً وميلاً للمبالغة، والتحليل.

• المصوّر الشاب زكريا وبعد أن وصله خبر الاجتماع المفاجئ قرر أن يحصل على سبق صحفي... فذهب إلى سكرتيرة المدير ودس رأسه بين نهديها وبدأ بطرح أسئلته الملحة، فتشعثت البلوزة، واضطربت السكرتيرة لهذا السلوك العنيف وأمسكت المصوّر المتحمس من شعره، وانتزعت رأسه من صدرها، فتكونت في قبضتها كتلة من الشعر الجعد الكثيف، ثم نهضت وصادرت منه آلة التصوير، وهددته

بإيصال أسئلته الفاضحة للمسؤولين. ثم دفعته وأغلقت الباب.

• حين نهض المصور الشاب زكريا من أرض الممر، تحرك بتثاقل، وبدأ يربت على نفسه بكفيه ليواسيها، فتطاير منه غبار لا طاقة له به، بعد ذلك توجه إلى بواب الصحيفة (أبو المجد) واشتكى له من غياب الرأي والرأي الآخر في هذه الجريدة. ثم منحه مئة ليرة ليقوم نيابة عنه باسترداد آلة التصوير التي صادرتها منه سكرتيرة المدير. ثم أخبر البواب بأن المحرر دون آلة تصوير مثل الأعمى.. وهو يخاف إذا تأخرت عليه الكاميرا أن تضطرب خطواته وتدهسه السيارات والزمامير.

• كانت الآنسة امتثال سكرتيرة رئيس التحرير، منهمكة بترتيب بلوزتها. وإخفاء الخدوش التي تركتها حركات المحرر زكريا على نسيجها. حين دخل عليها أبو المجد حارس الجريدة. وطلب منها تسليمه آلة التصوير، وأعطاها خمسين ليرة تعويضاً عن الخسائر. وحين لمحت السكرتيرة امتثال الخمسين ليرة، اضطربت لهذه الجرأة وقالت:

- لقد أصيبت البلوزة بالتشتت والخدوش، ثم وضعت يديها على نهديها وقالت:

- وبسبب التضخم وارتفاع الأسعار أحتاج لمبلغ (٥٠٠) ليرة لشراء بلوزة جديدة مناسبة تعجب السيد رئيس التحرير. فارجع إلى مصورك.. ولا ترضَ منه بالقليل.

• ورغم دهشة زكريا من ضخامة المبلغ، فقد تابع الكلام

مع البواب، ملتمساً منه التفاوض مع السكرتيرة من جديد. والسعي لتقسيط المبلغ. وعفا الله عما مضى، ثم عاهد بواب الجريدة عهدا قاطعاً، بأنه لن يحاول الحصول مرّة أخرى على أي سبق صحفي. حتى ولو أدى ذلك إلى فرح (النيوز ويك) بعد دقائق التأم شمل الاجتماع... وتقاطر المحررون والمحررات، وقعدوا خلف الهيكل البيضوي للطاولة الشاسعة في قاعة الاجتماعات، ثم دخل مالك الحزين وعلى كتفه رأس المحرر الجليل عبد القادر الحمداني، وكان الوضع متهالكا، ومالك الحزين يتحرك ببطء وانخطاف وهو يجر إلى جواره الرجل الذي سينعقد الاجتماع من أجل بيانه الختامي. وخلال ذلك، تقاطعت نظرات المصوِّر الشاب زكريا. بنهدي الآنسة امتثال سكرتيرة المدير... فالتفتت السكرتيرة إلى الجهة الأخرى بغضب وتفاؤل. حتى لا تمكنه من نفسها ونهديها، فينجح في التأثير عليها والمطالبة بتخفيض المبلغ واستعادة الكاميرا والتحكم بالمصير.

• لـذلك ورغبـة مـن المحـرر زكريـا في إغاظـة الآنـسة السكرتيرة صاحبة النهدين الجبارين فقد نهض من مكانه وقعـد قـرب المحـررة عاتكـة العاملـة في قـسم الوفيـات والإعلانات، ثم قرَب فمه من عنقها وهمس لها بأنه قرر أن يقرأ لها كل مقالاتها دون أن يطالب بالتعويض .

• فابتسمت عاتكة ابتسامة شجاعة، واعتذرت باعتدال عن الصفعة السابقة التي رنّت في الممر، وأكدت لزكريا بأنها كانت في ظروف صعبة وأن طلبه كان من الممكن أن يلبى لو لم تكن قرب بيتها مقبرة وكلب وأخبار عن الرجال الميتين. ثم رفعت ذراعها لتحية مالك الحزين الذي قعد بعيداً قرب كرسي رئيس التحرير. فظهر طرف بليغ من نهدها. مما أدخل الطمأنينة إلى قلب المحرر زكريا... فخرج من قاعة الاجتماع وركض مسرعاً إلى الحديقة العامة ليقوم باستئجار آلة تصوير من أحد المصورين ليدخل مرّة أخرى في حُمّى السبق الصحفي.

• وبغتة نهض الجميع بعد أن دخل رئيس التحرير. الذي تقدم بابتسامة شاسعة وحركة ملائمة .

• وظل عبد القادر الحمداني قاعداً... وعندما وصل رئيس التحرير إلى المنبر وقعد على الكرسي صاح المحرر الجليل، عبد القادر الحمداني مخاطباً رئيس التحرير:

- لا تؤاخذني يا أستاذ بسبب عدم نهوضي لاستقبالك، فلقد حلفت يميناً بالطلاق أن لا أنهض لأي رئيس تحرير، وقد اتخذت قراري هذا بعد أن صدر مرسوم يقضي بإيقاف جميع الصحف في مدينة حلب، والإبقاء على صحيفة محلية وحيدة هي تلك التي نعمل فيها الآن. هذه الصحف التي كان عددها يربو على عشرين مجلة وصحيفة يومية وأسبوعية وشهرية وفصلية، وكانت أيامها تنافس صحف القاهرة وبيروت في العدة و العدد. وعندما يربو العدد على العشرين فلا بد وأن يغص المتكلم بالرقم وتصيبه نوبة من الحساسية والانفعال لذلك انخرط العجوز الحمداني بالسعال، وتناثر الماء من فمه وعينيه. ولم يكن ممكنا أن لا يصاب رئيس التحرير بالدهشة وهو يسمع الرقم، لذلك نهض من موقعه وصاح:

- عشرون جريدة ومجلة.. هذا كثير.. كثير جداً.. ورغم ضخامة الرقم وعلو شأنه فأنا منحاز لصحيفة محلية وحيدة، وأنتم، وأعوذ بالله من كلمة أنتم (وأشار إلى الحاضرين)... أنتم منحازون لتعدد الصحف. ثم ألا ترون معي.. بأننا عندما نتحدث.عن حمار وحيد أو كلب وحيد وفتاة وحيدة وصحيفة وحيدة يكون الرقم الواحد أدعى للتعاطف والتضامن والانتباه.

• كانت بلاغة رئيس التحرير وهو يبلور موقفه لا تبارى، لذلك غزت الدهشة عقول وعيون المحررين وبدؤوا يحكّون أجسادهم ومعتقداتهم، ثم انخرطوا بنوبات متباينة من المرح والاضطراب اللعين فبدوا مثل كائنات وحيدة عارية ضيعت صحيفتها المحلية الوحيدة.

أما عاتكة فقد تباين موقفها وصارت تنتقل بصورة فاضحة من الضحك العاصف إلى البكاء المبين، لذلك حاول المصوِّر الشاب زكريا أن يشد عاتكة من (تنورتها) ليخلصها من اضطرابها و يمنعها من الاسترسال، وقد فعل بقصد حسن. لأنه لم يجد لبلوزتها ذراعاً ليشدّها منه، لذلك أساءت عاتكة فهمه، ورفعت كفّها وصفعتهُ، فانخطفت أنظار الجميع إلى وجه زكريا.. وقد أحسّت عاتكة بفظاعة موقفها.. لذلك نهضت للتبرير:

- بعد أن استلمتُ قسمَ الوفيات اضطربتُ وصرتُ أخافُ من اليد التي تمتدّ لتنورتي لتعيدني إلى سواء السبيل.. أمّا الشاب الذي اتصل بي منذ أيام فقد ركضت إلى لقائه كما يركض الظامئ إلى الماء، وعندما التقيت به، كان مضطرباً ومهلهلاً وعوضاً عن الانتباه إلي.. طلب مني أن أقرضه بعض المال. ثم وقعت عاتكة على طرف الكرسي مثل شيءٍ خاطئ وجميل.

• كان لصوت الصفعة تأثيراً مدوياً.. أعاد الجميع إلى رشدهم، فتلمسوا خدودهم مستغربين، وقد وجدت عاتكة الفرصة مناحة لمسح دموعها ومتابعة شرح موقفها فقالت:

- وبسبب هذه الظروف وجدت نفسي مندفعة لصفع زميلي زكريا للمرّة الثانية لأسباب صعبة التبرير.

في تلك البرهة الحرجة، وجد زكريا نفسه وخده محمّرين لذلك حاول أن يخفي انفعالاته تحت الطاولة ليقطع الطريق على المتسائلين والشكّاكين.

وكان الجميع يتأمّلون الموقف وهم في حالة احتباس وخشوع، وقد ساد المكان جو من الإلفة والاحمرار، أدمع العيون والعقول.

• ثم كانت من رئيس التحرير، التفاتةً كريمة، فنهض وقال:

- يحقّ لنا أن نهنئ أنفسنا بهذا الجو الودّي الذي تسوده الصداقة والصفعات، وأرى أنّهُ من غير الممكن أن تسود مثل هذه الأجواء، سوى في صحيفة محلية وحيدة، أمّا عندما تكون هنالك صحف كثيرة، فأنا أجزم بأنّ روح المنافسة ستقطع دابر كلّ مودّة، وسيصاب الجميع بحمى العداوة والارتياب، ولن يجد الواحد، فرصة للحصول على صفعة أو تأييد.

• وقد قوطع كلامه بوابل من التصفيق كرّره الحاضرون عدّة مرّات.. حتى كاد مالك الحزين أن يصاب بالصمم والرغبة في الطيران، وقد اضطرّ عبد القادر الحمداني الذي التهم كيساً كاملاً من السكّر، أن يشدّ رئيس التحرير من كُمِّ سترته ليعيده إلى رشده، فحاول الرجل أن يلجم ذاته عن الاسترسال في الكلام، والتفت إلى الرجل المجاور (الحمداني) وقال:

- وبسبب من روح الود هذه، اجتمعنا اليوم، لبحث ظاهرة من أخطر الظواهر، ألا وهي المبالغة بالتهام السكّر، والسكّر كما تعرفون، مادةٌ مقنّنه توزّعها الحكومة على المواطنين بالقسطاس المستقيم. وبذلك تتساوى حصتي (أنا ورئيس التحرير) مع حصة أي شخص لا علاقة له بالتحرير. إنّ الحصة التي تمنحها الحكومة للشخص الواحد هي حصة لا تخص الشخص الواحد بمفرده، وإنّما تخصّ الواحد كفرد في أسرته، لذا فالتجاوز في الحصة تجاوز على الحقّ العام والخطة.

وقد فعلها زميلنا الكبير، والتهم حصته وحصة أسرته حتى وصل إلى قعر الكيس ولقد حاولنا أوّل الأمر أن نتجاهل التجاوز ونغض الطرف عنه.. لكنّ أستاذنا وصديقنا الحمداني رفض كلّ عون. وقرّر بلسانه وفمه المملوء بالسكّر، الطلب منّي لعقد هذا الاجتماع، ليشرح لكم الأسباب التي

دفعته لاقتحام الطابور بصورة أوقعت سكرتيرتنا الخاصة على الأكياس، وكادت الوقعة أن تفقدها عذريتها، لذلك أحذركم من السكر، وأدعوه باسمكم ليتبوّأ مكاني على المنبر ليدلي بدلوه، ويفصح عن هواجسه ونفسه، وخطّته حتى لا يكون أمام نفسه من المتهمين.

• فتقدّم الحمداني الجليل، وبعض من العرج الخفيف يوشّي خطوه وملامحه، فيزيده جلالاً واضطراباً وحين وصل إلى المنبر، لم يقعد على الكرسي كما يفعل العامة من الخطباء والمسؤولين، وإنّما صعد الكرسي ووقف عليه، فاستغربنا، واضطربنا خوفاً عليه من السقوط. غير أنّه بدا لحظة صعوده أكثر قوّة وتأثيراً في النفوس.. ثمّ أخذ نفسين عميقين وخلع أحد نعليه، ونزع فردة الجورب عن قدمه. ثمّ حمل القدم المنزوعة وخبطها على وجه الطاولة وهكذا أصبح حاله وشكله في هيئة رجل يتحفّز للوثوب. قدمٌ صغيرة عارية على المنبر كأنّما هي قدمُ طفل.. وقدم منتعلة فردة الحذاء وجاثمة على الكرسي، ثمّ قال:

- لقد رغبتُ أن أبدأ الحديث عن قعر قدمي وليس عن قعر الكيس الذي شغل بال خصومي.

• ثمّ رفع مقدّمة قدمه. فظهرت لنا أصابعه، وكان أبرزها تلوّناً وحرجاً، إبهام قدمه الكبير الذي كان يشتعل بالزرقة القاتمة والغموض.

• ثمّ أشار الحمداني إلى إبهامهِ وقال:

• هل حاول أحدكم أن يتأمّل إبهامه المتورّم مدة تزيد عن حول؟ الإبهام المتورّم، إبهام أعمى لذلك يضل صاحبه الطريق فيقع في منتصف الممر، وحوله نثار خفيف من السكّر والأصدقاء المستغربين.

• كان الحمداني غريباً وشاسعاً، لذلك أصغينا له وبدأ الرجل يكبر في عيوننا، وأخذ إبهامه يكبر ويهيم.

- لقد شعرت بالبهجة عندما استجبتم للدعوة وحضرتم للاطمئنان على مصير السكّر والكيس.

• غير أنّ ابنتي، لم تكن مبتهجة مثلي ولا مطمئنّةً مثلكم، وكان لديها بعض الحقّ وهي تتابع انتقالي من الطاولة الحمراء إلى الطاولة السوداء. حيث أقسّم نفسي ورؤياي إلى أفكار وكتابات متعارضة، كتابات أحوّلها لطيورٍ ورقية وكتابات مضادة تذهب للجريدة فأتذكّر إبهامي.. وأنتبه للتباين في الألوان والمعتقدات والمصير.

• عندما انتبهت ابنتي.. اقتربت مني وقالت كلاماً أذهل أُبوّتي.

- يا أبانا الذي في الجريدة. أنت تكتب كلاماً في أوراقك الخاصة في البيت، ثمّ تكتب كلاماً مغايراً في زاويتك اليومية في الصحيفة، فكيف تستطيع الدخول، وكيف تستطيع مواجهة رئيس التحرير؟

• لحظتها نبض إبهامي بقوّة واقتدار وهو يسمع كلام ابنتي فتلوّنَ سعيه وتغضّنَ اظفره ثمّ ركض الأولاد إلى الأوراق المكتوبة المتناثرة وقرؤوها هنا وقرؤوها هناك ثم شعروا بالتباين وبدؤوا يحدّقون إليّ بريبة واضطراب كأنّما لم أكن لهم أباً في يوم من الأيام.

• لذلك أنظر إلى وجوههم لأقرأ أفكارهم مثل جريدة نبيلة مفتوحة ثم ابتسمُ، وأُخرجُ السيجارة المحلية الخانقة، وأشعلُ رأسها وأسحبُ نفساً طويلاً، ثمّ أنفث دخاناً عميقاً لأحتمي به من ظنون الأبناء وبريق عيونهم، ثمّ أتوارى في الغرفة الصغيرة النائية وأبدأ بالصراخ:

يا الله لقد أنفقت كثيراً من الحبر الأسود.. حتى جفّ مداد روحي.. ووصل الحبر إلى نقي عظامي، وما انتهت أشجاري وأيّامي، فلماذا حين التفت إلى زاوية الغرفة ألمح الصحيفة المحلية كأنّما تتحفّز للانقضاض عليّ؟

• كانت عاتكة قاعدة وذاهلة، وكانت تتمنى أن يشدها مالك التعيس أو المحرر زكريا أو رئيس التحرير، من أحد أطرافها ليخرجها من ذهولها، ومن سطوة الكلام الذي أطلقه الحمداني فيها بعد أن أطلق إبهامه من الحصار. غير أنهم كانوا جميعاً أكثر انصرافاً وذهولاً منها، وقد خطر ببالها أن تبادر إليهم وتشدهم من أطرافهم لينفضّوا عن

كلام الحمداني ويلتفتوا إليها ولكنها لم تفعل، وكانت مشغوفة بذهولها وبالمتابعات التي يمكن للحمداني أن يضيفها إلى الإبهام العام الذي أوقع الناس فيه.

قال رئيس التحرير مقاطعاً ومخاطباً الحمداني:

- بعد الذي أصاب إبهامك. كان واجباً أن تذهب للطبيب.

- الذي يعمل في الصحيفة.. لا يستطيع أن يمنع جحافل الحبر من التدفق والانتشار.. ولم أكن منتبهاً حتى اكتسحت فلول الحبر شراييني. فتركت الصحيفة.. وذهبت إلى الطبيب المختص.. وحين عاين الطبيب إبهامي قال:

- يجب أن تنتبه.. أنت مصابٌ بالسكّر.

• (فاستغربت، ثمّ ضحكت.. وقلت للطبيب) :

- السكر لم يصبني في يومٍ من الأيام، أنا مصاب بالمرارة ألم تقرأ الزاوية اليومية التي أكتبها في الصحيفة.

ردّ عليَّ الطبيب باستغراب:

- أية صحيفة؟

- الصحيفة المحلية الوحيدة.. وقد لمحتها على الطاولة التي تتوسّط غرفة الانتظار في عيادتكم..

هزّ الطبيب رأسه قائلاً:

- لقد تذكرت، الصحف شأنٌ يخصّ الممرّضة، وهي من المهتمات بالكلمات المتقاطعة.

- فلماذا أصبح إبهامي أسود اللون..؟

- هذا أمرٌ سنتأكّد منهُ، بعد أن نسحب عينة من دمك ونرسلها إلى التحليل.

- وهل يمكن بعد ذلك أن تكتشف سرّ الإبهام الذي يصيبني؟

- طبعاً أقدر..

• ثمّ شعر الحمداني بالذروة، وهو يتأمّل كائنات الاجتماع، وقد أوقعهم الإصغاء العنيف في الصفرة فتحوّلوا إلى تماثيل فزعة هاربة من متحف رطب قديم، فتأمل وشعر بما ينتاب الحضور من رهبة وإعياء لذلك حاول أن يختصر.

• بعد ذلك صمت الطبيب. وبدأ كتابة الدواء باستعجال ثم ضرب الجرس، وحين دخلت الممرّضة طلب منها أن تسرع في إدخال المريض الثاني.

وهكذا خرجتُ من العيادة بعد أن تمكنت من إقناع الطبيب بأهمية أن يصاب إنسان مثلي بالمرارة.. والمصاب بالمرارة يندفع إلى السكّر مثل ذئبٍ جريح، ويبدأ التهامه بصورة لا تنفع معها الأخلاق السائدة ولا المحاذير.

بعد ذلك أجد نفسي خارج العالم، وحين أصل إلى البيت أستر إبهامي.. وأبحث في المكتبة عن رواية (ستندال)، وأضعها أمامي.

- لماذا كتب سنتدال (الأحمر والأسود) وهو لم يعمل في الصحف يوماً.. ولم تكن له زاوية يومية مثلي.. ألا يحق لي وقد غدرَ بي إبهامي الكبير أن تكون لي زاوية بعيدة في السماء أستطيع أن أنفرد بها لأعيد صياغة حبري وكلماتي.

• وقد قوطعت الجملة الأخيرة بالتصفيق الشديد، لذلك أنزل الحمداني إبهام قدمه الأسود من على وجه المنبر بعد أن بلغ التعب بساقه مبلغاً كبيراً.. ثم أخذ نفسين عميقين ودسّ قدمه في فردة الجراب ودسّ فردة الجراب في فردة الحذاء، وبدأ الحديث بتمهّل عن زوجته.

• حين تنجز زوجتي واجبات الطبخ تغادر المطبخ وتقعد قبالتي.. وتنظر إليّ. فألمح بعض الدموع على أطراف ثوبها الأسود، فأتلمس أطراف الثوب، واشعر بالزمان البعيد الذي أفلت منّي، والتجاعيد الكثيرة التي التجأت إليها، ثمّ أقول:

- ثوبها أسود أيضاً، لكأنّها تعيش حداداً مبكّراً عَلَيّ ثم ينتشر السواد، في ذكرياتي، فأغفو وألمح في النوم جميع الأولاد.

• الضائعين منهم والحاضرين، وترف وجوههم مثل ورق أبيض نبيل ثم تغيب عني صورتهم وأحس بنفسي طائراً إلى الزاوية البعيدة في ملكوت الله. وحولي أكياس لا حدود لها من السكر الذي لم تمسسه الأنظمة والقوانين. وقد طار

عني الإبهام الذي يقلقني، وتسرّبت المرارة التي تفزع رؤياي إلى الكواكب الأخرى والفضاء الرحيم.

- ثمّ نزل الحمداني عن المنبر ومضى مثل شيء يلتمع لمرّة واحدة في العمر ثم يتلاشى ويغيب.

- وكان الصمت الذي أصاب الحاضرين طويلاً، لذلك نهضوا في هيئة رجلٍ واحد وتراكضوا إلى ما يخصّهم، من السكّر وبدؤوا بالتهامه، كنوع من التعاضد، أو العزاء، وكان في طليعتهم رئيس التحرير.

- حين وصل الحمداني إلى بيته، لملم نفسه وأركان أسرته، وحدّثهم عن فضائل السكّر، وبأنّه العنصر الوحيد الذي يحرّر الناس من زمانهم، وأعتذر منهم بسبب تطاوله والتهامه حصصهم، ثم طلب منهم باسم الأبوّة، أن يركضوا إلى بيوت الجيران ليغتصبوا منهم سكّرهم ويحضروه إليه، وكان من نتيجة ذلك، أن انتقل السكّر من إبهامه إلى أوهامه، فانتشرت الغرغرينا في ملامحه، وكلماته، وبدأ بالتطاول والهذيان. عند ذلك تنفّست زوجته الصعداء. وصاحت بالأولاد أن احملوا والدكم إلى مستشفى الجامعة، فأنا لا أريد أن أراه يموت أمام أحزاني..؟

- ألا تذهبي معه لمتابعة حاجاته وشؤونه؟ (قالت الابنة الصغرى).

- أريد أن أحزن عليه بعيداً عنه.. فاحملوه حتى لا أتذكّر أيامي معه.

• في مستشفى الجامعة. كان الأطباء المناوبون، والأطباء المتمرنون، منتشرون في الزوايا المعتمة والمنعطفات، وقد انفرد كلّ طبيب بطبيبة متمرّنة أو ممرّضةٍ مناوبة، وبدأ يحدّثها عن تفوّقه وعلاماته العالية. التي حصل عليها متجاوزاً أقرانه وأساتذته. حين دخل جثمان الحمداني المسجّى على طاولةٍ نقّالة، كان الجناح الذي يستقبل مرضى الإصابة بالسكر يعيش فراغاً هائلاً، كأنّما هو في ظلّ قوانين منع التجول، وكانت الطاولة النقّالة والأولاد المجاورون يتحركون في الممر الطويل وهم ينجزون صريراً من نوع خاص يشبه الصرير الذي يطلقه قلم رئيس التحرير، وهو يكتب مقاله اليومي.

ثمّ عبرت النقّالة بهو المستشفى والممر الملحق، وكانت الإضاءة ضعيفة، والمرضى السكّريّون، يعيشون غيبوبة السكّر ولا يقدرون على الإلتفات. وقد اضطرب أولاد الحمداني بسبب الفراغ والعتمة، فتركوا جثّة والدهم وطاولته النقالة، وتفرّقوا في الأنحاء بحثاً عن طبيب أو طبيبة حتى يكون في مقدورهم العودة إلى أمهم واثقين.

واحد من أولاد الحمداني، تجرّأ وصاح:

- يجب على الأطباء المناوبين.. أن ينتبهوا إلى غيبوبة أبي.

• حين علم أحد الأطباء أن المريض واحد من أهم محرّري الصحيفة المحليّة الوحيدة أُعلن الاستنفار العام، فانسدلت الألبسة وانتشرت الخطوات المستعجلة، والأسئلة، وأفلح الأطباء اللاهثون وبعد زرقة مركزة من الأنسولين، في إعادة الحمداني إلى هيئته ويقظته وآخر لحظاته.

• وحين أصابته اليقظة، فتح عينيه وحرّك رأسه وسأل عمّا أصابه فقال له الطبيب:

- هذه غيبوبة السكّر

فابتسم الحمداني وقال:

- ليتها كانت طويلة هذه الغيبوبة

- لقد بذلنا جهداً مضنياً لإخراجك منها

- ليتكم تحاولون إعادتي..

• بعد أيّامٍ من الصحو المستمر، ذهب الحمداني إلى سكّان الجناح، من مرضى السكّر، ودعاهم إلى اجتماع عام، وطلب منهم التعاون معه، لتشكيل هيئة تحرير، لجريدة جديدة اسمها جريدة (الذباب والسكّر) والسكّر أيها الأخوة المواطنون مادةٌ دبقة، وتلتصق عليها الأفكار والذباب بصورة

لا تنفع معها أية منافسة أو رقابة أو تحذير، والسكّر عندما يتكاثف، في الأوردة والشرايين، يحول الدم، إلى نوعٍ فريد من الحبر، ينفعنا كثيراً، في الكتابة والتحرير، ثمّ أصيب الحمداني باللهاث وابيضت عيناه، ودخلتا في العتمة والأنين، وسقط على الأرض، فركض الأطباء إليه مكبرين.

• كان خبر إصدار جريدة جديدة، في قسم مرضى السكّر، في المستشفى، يشبه زلزالاً وعندما وصل الخبر إلى الجهات المسؤولة، اجتمع أركانها، وبدؤوا التحليل والمداولة، وقرّروا بعد تعقّل وانتباه، أن يقتلعوا الحمداني من سكره، وغيبوبته ويحضروه إليهم ليطرحوا عليه بعض الأسئلة. التي توقظ الحجارة والمواطنين.

• بعد مدّة، وصل أربعة رجال إلى المشفى وحملوا الحمداني، ومضوا به إلى غرفة الأسئلة في قسم الإنعاش، وغرفة الأسئلة شيءٌ باهر، جدران ملفعة بالمخمل، والأزرار، حتى الحافة ووسط الجدران نوافذ زجاجية، تتسرّب منها أسئلة، في هيئة كلامٍ دافئ فيلتفت رأس الشخص إلى جهة السؤال، وقبل أن يرتدّ إليه طرفه، ينهال عليه سؤالٌ آخر من الكوة المقابلة وهكذا يصاب الكائن بالتلف والهذيان، ويتعذر على فمه أن ينبث بعد هذا اللقاء.

وعندما لا يعينك صوتك، وذهنك على التفوّه بحرف، كيف تعطي لنفسك الحق بإصدار جريدة ثانية أيها المحرّر القديم.

- حتى أخلّص الجريدة المحلية الوحيدة من وحدتها وغيبوبة أعمالها وسكّرها المقيم، إنّ صحيفتنا المحليّة الوحيدة تنفع الناس في أمرٍ واحد.

- وما هو..؟

- تنفعهم في الصرّ والقر، ومسح الشتائم عن العيون، فعندما يندر وجود الورق الطري، يصبح للجريدة حظوةٌ وتأثير.

ثمّ عبر رئيس التحرير مثل لوحةٍ مشوّشة وكان حزيناً وطريّاً، ويتفصّد منه الحبر الذي لا ينفع الناس، ثمّ استدار برأسه وأهدافه إلى جهة الحمداني وقال:

- لم أكن أتوقّع أن تفعلها يا حمداني. وتدخل المنافسة، مؤلفاً جريدةً من السكّر والذباب لتضاهي بها جريدتنا ومحاذيرنا، إنّك.. إنّنا.. ورغم ذلك أُحمّلك التبعة، ولعنات الزملاء المحرّرين ثم تراجع حتى وصل إلى الجدار، وتسرّب من كوّة ضئيلة فيه.

عند ذلك أحسّ الحمداني بالريبة والحزن، وشعر بثقلٍ كبير في الحالب ففتح عينيه، ونهض من نومه ومضى إلى الحمّام.

بعد يوم أو بعض يوم، انتشر خبر موت الحمداني. فاضطرب المحرّرون والمحرّرات. وشعروا بفداحة غياب الرجل، بعد أن شعروا بفداحة وجوده، وتشكّلت على أطراف عيونهم الأسئلة الرطبة واللعنات، وأحسّوا بالتقصير تجاهه، وذلك لأنهم لم يتمكّنوا من حضور تشييعه، بسبب ارتفاع أجور المواصلات. وظلّت ذكراه وحفنات السكّر التي أطلقها في الممر، ماثلة في الأذهان عدة أيّام.

مالك الحزين وحده ذهب إلى التشييع، وحمل وشاهد الجماعة الضئيلة التي شاركت في الموكب والدفن ووحده من المحرّرين وقف وتأمّل وحمل حفنة من التراب وألقاها، ووحده فقط عاد إلى المدينة وعندما اصطدم برجلٍ آخر.. اعتذر منه وقال:

- لا تؤاخذني، كنت في المقبرة، وألقيت حفنة من التراب على قبر صديقي الحمداني.. المحرّر الأول في الصحيفة المحلية الوحيدة.

عندما سمع الرجل الغريب كلام مالك الحزين.. عن موت الحمداني شهق شهقةً عظيمة وضرب صدره بقبضته ووقع على الأرض. فاجتمع الناس، وعندما عرفوا أسباب سقوط الرجل وخبر موت الحمداني، شهقوا شهقات متباينة وركضوا إلى جهة المقبرة.. كأنّهم فقدوا أباً لا يجود الزمان بمثله كلّ حين.

يومها كان الفصل خريفاً، والهواء الرطب يلفح الوجوه بلطف شديد، والسماء في نشوة وتطاول بعد أن استردّت أمانتها العالية، وكانت البرهة وكأنّها برهة عيد. وزوجة الحمداني قاعدة في الزاوية التي لا يمكن الإلتفات إليها وحولها من الوجوه والسواد ما ينهك الأمومة والتجاعيد، ثمّ فكّرت زوجته.. كان حضوره فادحاً، غير أنّني لم أكن أعتقد أنّ غيابه سيذهل الأولاد الحاضرين والغائبين فلا يلتفتوا إلى أمّهم، ولا إلى أولادهم، ويذهبوا كل يومٍ إلى قبره، ليتحلّقوا حولهُ كما يتحلّق العميان حول ذكريات ضوءٍ أخير.

وعندما يموت الأب لا بدّ من استئصال آثاره، حتى لا تكون فتنة في الأرض.. ووحدة ومرارة حول الأم، التي عندما شعرت بأنّها فقدت حصّتها من السكّر، نهضت بقوّة، وجمعت كلّ أوراق زوجها الحمداني. ومؤلفاته وذكرياته وأخرجتها إلى الشرفة.. فتطايرت الأوراق والأقلام والأسماء، والشهقات مثل سربٍ من الطيور البيضاء.. وخرّ على وجهه مغشيّاً ظلّ الأبَ القديم

سـور المدينـة

ريبورتاج مصوّر

• كان الانفعال يحرّك ملامح رئيس التحرير، وهو يلقي على العاملين في الصحيفة الخبر بعد أن وجّه الدعوات السريعة لحضور الاجتماع الطارئ الذي ارتبط بحصول حادث غريب. فاشرأبّت أعناقهم وأصاخت آسماعهم، انتظاراً لمعرفة الحدث، وطبيعته.

- أمّا الحدث الجلل فهو، انهيار سور مدرسة أبي عبيدة بن الجرّاح للبنات. هذا الحدث من شأنه أن يدفعنا لبحث الظاهرة من جوانب مختلفة، فهل يعرف أحدكم أين تقع المدرسة، وبعد تريُّث نهض المحرّر الطويل. الأستاذ محمد عبد الواحد، رئيس قسم التطبيق والدراسات النفسية في الصحيفة، ونظر إلى رئيس التحرير والمحرّرين باستعلاء وقال:

- تقع مدرسة الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح، قرب باب قنسرين الحصين، وهو من أعند أبواب حاب

وأعتاها. والمدرسة قائمة على سيف التلّة السوداء ومنحدرها، أمّا أبو عبيدة بن الجراح فهو قائد الجيش الذي قام بفتح حلب، بعد أن استلم إمارة الجند من خالد بن الوليد الذي عزله عمر بن الخطّاب خليفة المسلمين لأسبابٍ سنفصل ذكرها في اجتماع قادم إن شاء الله.

• ثمّ قعد متلفّتاً ليتلقّف النظرات المجاورة ويقوم بتفكيكها وتأويلها وإرجاعها إلى مصادرها، وبخاصة نظرات عاتكة، والتفاتات سكرتيرة رئيس التحرير.

وبسبب من طوله الشديد كان الأستاذ محمد عبد الواحد يضطرّ لأن ينظر باستعلاء نحو الجميع.. وكان الآخرون يسيئون فهمه، فيتصاغرون أمام ظلاله ونظراته منهكين.

• تابع رئيس التحرير الكلام:

- لذلك يجب أن ننجز ملفاً ضخماً يرصد انهيار السور وأسباب الانهيار، وظروفه، وتفاصيله وكثافة حجارته، واسمنته ولا يمنع أن نتوغّل عميقاً في الكشف حتى لا نضل الطريق. أقول قولي طالباً منكم الانتشار، كل حسب جهده وقدرته واتساع زاويته في الصحيفة. وعليكم العودة مملوءين بالأخبار الحيّة والتفاصيل. أمّا إذا طالب أحدكم بتوفير المواصلات فإني أعلن أن سيارتي الوحيدة في التصليح.

ثمّ غادر المنبر، مثل عاصفة متجهةٍ إلى الباب، فانفضّ الاجتماع وتشتّت شمل المجتمعين.

أمّا المحرّر الشاب زكريا فقد هرع إلى الآنسة امتثال سكرتيرة رئيس التحرير ليطلب منها إطلاق سراح آلة التصوير التي تخصُّه، ليتابع بواسطتها رصد الانهيار والدوافع التي قوضت الجدار.

وحده المحرّر الأستاذ محمد عبد الواحد ظلّ قاعداً ومتحيّراً.. إذ كيف سولت لرئيس التحرير نفسه أن يتجاهل تحديد موعد الاجتماع القادم الذي سيحاول أن يشرح فيه الأسباب التي أدّت إلى تنحية خالد بن الوليد وتكليف أبي عبيدة بن الجرّاح بإمارة الجند وهي أسباب هامّة، تفوق بأهميتها الأسباب التي أدت إلى قيام الحروب، واضطراب مصائر الحضارات والفاتحين.

❖ ❖ ❖

• حين وصل المحرّرون إلى السور وعاينوا الانهيار، أعيتهم الحجارة والأسباب وغزت ملامحهم الحيرة والتقلّصات. فانطلق كلٌّ منهم إلى الجهة التي تعينه على الكشف والتأويل فعندما يصيب الانهيار سوراً صلباً ومتماسكاً ومجاوراً لباب قنسرين الذي يفوق بقوته ومناعته باب القلعة يتساءل المواطن عن معنى الانهيار، ثمّ ينهض ليتفقّد نفسه. وحجارة بيته دون أن يفكّر باللجوء إلى الصحيفة المحلية ليستلهم منها الصلابة والعزاء.

❖ ❖ ❖

• في الافتتاحية المطوّلة التي كتبها رئيس التحرير، أشار إلى عدد من الأمور الجوهرية أكّد من خلالها في محاولة منه لتطمين القراء الأعزاء، بأن انهيار السور،عمل فردي قامت به مدرسة بعينها،وأن هذا الانهيار لا علاقة لهُ بالبناء العام المتين الشامخ، وطالب رئيس التحرير الجهات المعنية، بالعمل السريع لتأمين مدرسة بديلة، لإيواء الفتيات المراهقات المتضررات من الانهيار، وحذر المعنيين من مغبة التأخير.

• في الوقت الذي انطلق فيه المحررون المحليون والمحررات لمعانية السور المنهار،دخلت مفرزة من المهندسين، وبدأت بتفقد البناء بعد أن شعرت مديرية الأبنية المدرسية بالفزع من أن يتجاوب البناء برمته مع السور ويلحق به.

وكانت المظاهر العامة للمبنى متماسكة، سوى من بعض الشقوق الداخلية الصغيرة، وبعد تفقد ومعاينة للجدران. تقرر تثبيت قطع متعارضة من الزجاج فوق الشقوق.. فإذا كان البناء مستقرّاً أمسكت الزجاجات بالبناء ومنعته من التهاوي، وإذا كان البناء مؤهّلاً للانهيار عند ذلك ستتسع الشقوق وتتكسر قطع الزجاج المتطاولة الملصقة، مما ينبئ باقتراب السقوط الوشيك.

• ذلك مما ورد في تقرير المهندسين، وقد قام العمّال بتثبيت القطع الزجاجية أمام ناظري مديرة المدرسة الدامعة

العينين. فالمديرة مروه الداخل، لم يصبها خوف من انهيار المبنى على رأسها وإنّما خافت أن ينهار المبنى على منصبها، فتفقد وظيفتها كمديرة مسؤولة عن المدرسة وتتحول إلى معلّمة منسية لذلك ورغم وجود اللجنة، رفعت كفّيها وصاحت يا رب، كأنّما لتحمل المبنى كلّه على كاهلها، ولتمنعه من الانهيار.

• في باحة المدرسة، اجتمع رجال الصحافة، وعندما لمحوا ثغرةً كبيرة في السور تمكنوا بفطرتهم وغرائزهم العظيمة من تحديد جهة الانهيار، فاتجهوا إليها مستعجلين.

• كان الجزء الطويل المنهار مكوّناً من حجارة صفراء صلدة تمّ تركيبها وبناؤها على طريقة حب الرمّان، وهي طريقة في البناء فائقة الدقّة، وتختلف عن طريقة بناء الرتل أو الطابور، لذلك يصعب أن تنهار إلا بوجود عوامل وشروط فائقة الخطورة والتعقيد.

• بعد فترة من التأمّل، اتجه المحرّرون إلى أماكن متباينة لإجراء مقابلات وتحقيقات تعينهم على الوصول للنقاط والأسرار الغامضة المسببة للانهيار. الجميع مضوا.. سوى عاتكة التي أصابها شعورٌ مبهم.. لذلك انحنت على الحجارة وبدأت بملامستها لاستثارتها اعتقاداً منها أن للحجارة أسراراً وعناصر لا يمكن فضّها إلا إذا تحقق الاتصال

الصريح. وبعد انحناءة مؤثّرة، خطر ببال عاتكة أن تقوم بتعداد الحجارة في الجدار المنهار، ودون تفكير في النتائج، انهمكت في العد، والحركة، فعندما يصاب الناس بالخسائر، يتم عدّ المصابين وتحديد نوع إصابتهم، فلماذا يتم تجاهل الحجارة عندما تتعرّض للإيذاء الصريح.

- حجرة، اثنتان، ثلاثة، عشرون، خمسون، مائة، وكان اللهاث و التعرّق قد أوديا بعاتكة عندما وصلت إلى (الألف).

- وكانت تضطر من أجل متابعة العد أن تمتد بزندها المكشوف إلى أماكن معتمة من الكومة المنهارة، حتى تصل إلى الصخرة الموؤدة لتتقرّى إصابتها وتمنحها الرقم الذي يضمن وجودها في الركام. غير أنّ يد عاتكة اصطدمت بشيء مدوّر ولهُ حافةٌ مدبّبة وبعد محاولة انتزعت هذا الشيء وأخرجته للنور وتأمّلته، كان الشيء قطعة عظمٍ نخرة، تأمّلتها ثم ألقت بها بعد ذلك اصطدمت كفّها بشيءٍ أكثر تعقيداً ومهابة . وكان الشيء جمجمةً آدمية غابرة تردّت حوافها وتضاءلت ملامحها، فانحنت على الجمجمة وحملتها وتذكّرت نفسها والمقبرة التي تجاور بيتها. ثمّ صرخت:

- لقد استطاعت المقبرة أن تنال من السور مثلما تحاول المقبرة التي تجاور بيتي أن تنال منّي.

• وحين التفتت ثانيةً إلى الجمجمة تناهى إلى سمعها صراخٌ غابر فالتفتت عنه وتذكّرت نفسها وجسدها.

- المقبرة تعري الكائن من جلده وملامحه، وقبل أن تطلق المقبرة أنيابها إليّ.. سأركض إلى الشارع وأتعرّى أمام أوّل رجل أشاهده، سأتعرّى بصورةٍ تنهك الموت وتحرّك الميتين.

• ثمّ ركضت إلى جهة الطريق والرجال العابرين.

❖ ❖ ❖

• مالك الحزين، وبعد أن عاين الانهيار،رجع إلى غرفة الإدارة فوجد المديرة.. فاقترب منها وقعد إلى جوارها، وأخرج الأوراق والأقلام، ثمّ تأمل المديرة، وقال:

- هل تعرفين الأسباب الحقيقية لغضب السور

قالت المديرة باندهاش:

- لم يكن أحد غاضباً عندما حصل الانهيار. ثمّ أنني لم أفهم القصد.

قال مالك الحزين:

- يبدو أنني أسأت التعبير. إنّني أسأل عن أسباب انهيار السور.

- أنا لا أعتقد بوجود أسباب مشروعة لهذا الانهيار.

- ولماذا.؟

- لأني اتخذت الاحتياطات اللازمة لمنع الانهيارات.

- وكيف..؟

- لي نظرية خاصّة في الإدارة، وتسيير الأمور.

- عظيم، هل تتفضلين بالتوضيح

- أولاً أقسّم المدرسين والمدرسات إلى قسمين، قسمٌ فوق السور، وآخر تحت السور، وبذلك أضمن عدم وقوع انهيارات.

• أجاب مالك الحزين مستغرباً:

- أنا الذي أصبحت لا أفهم هذه المرّة.

فقالت المديرة:

- ما رأيك بفنجان قهوة..؟

• ثم أدخلت جسدها ورأسها تحت الطاولة وتكوّمت حتى لا تبين.. ومن تحت الطاولة.. تابعت الكلام وتحضير القهوة خوفاً من حصول انهيارات جديدة.

• حين وصلت عاتكة إلى الباب الخارجي للمدرسة كادت أن تقع من السرعة والفزع كأنّ قبيلة من الجماجم تطاردها، وحين أصبحت على الطريق الممتد بين باب قنسرين وجامع جمال عبد الناصر، تأمّلت الطريق بقوّة عسى أن ترى رجلاً لتركض إليه وتحتضنه ليخلّصها من ذعرها، وهجوم المقابر

إلى روحها وجسدها، وحين لمحت رجلاً ركضت إليه، وهمّت بعناقه، لكن الرجل تملّص من زنديها، وركض فزعاً مثلما تركض امرأةً داهمتها فجأة جحافل الفاتحين. وكانت عاتكة قد أعدّت للرجل العابر وزنديه كلاماً ترقّ له الحجارة.

وقلوب الرجال الميتين، فلماذا خذلها، ولأي سبب هرب منها، كأنّ ركْضَ المرأة بزندين مفتوحتين يفزع الرجال ويدفعهم للبلاهة، والركض الطويل.

• ثمّ كان اضطراب في الأرض ولوعة في صدر عاتكة، لذلك صرخت وأمعنت حتى سقطت على الإسفلت المستريب ولم يكن حولها من يسمع ولم يكن حولها من يجيب.

• في فترة وقوع عاتكة على الطريق. عبرت السيارة الصفراء التي تقلّ المصوّر زكريا، وعندما لمح الجسد المسجّى، نزل من السيّارة وانحنى عليه وتفقّدهُ وعندما تأكّد لهُ أنّ الجسد المنهار هو جسدُ عاتكة، أحسَّ بالاضطراب ولم يتمكّن من حسم الموقف إلا حين تذكّر صفعات عاتكة، فمضى إلى السيّارة ودخلها وتابع الطريق إلى الانهيار القريب.

• بعد برهة عبرت امرأة وحين لمحت جسد عاتكة على الأرض صرخت صوتاً أيقظ الناس والحجارة والنسوة

العابرات، فهرعوا إلى الجسد المخطوف وحملوه إلى بيت مجاور. وفي البيت اجتمعت نسوةٌ من الحي وتأمّلنَ أطراف الجسد المكشوف، وتذكَّرنَ أزواجهن المناجيس، وحين لمحت إحداهن المنظر صرخت:

- رجال هذا الزمان ينقضّون على المرأة الغريبة.. دون أن يردعهم عهدٌ ولا خوف، وحين يصلون إلى بيوتهم يديرون ظهورهم إلى زوجاتهم، ويبدؤون الشخير.

فالتفتت النساء إلى كلام المرأة منبهرات وصاحت إحداهن وهي تشير إلى جسد عاتكة الفاضح:

- الذنب في النساء وليس في الرجال فعندما تتكشف العورات في الطريق، يفقد الرجال الفطنة والمحاذير.

بعد هذا الكلام رفعت امرأة كفّها وصفعت عاتكة لتوقظها، فتتالت الصفعات للقصاص من الوجه الفريد.

• حين فتحت عاتكة عينيها ولم تر شيئاً بسبب كثافة الأكف والصفعات سألت وهي في اللجة والشتات:

- أين أنا أيها الربُّ القدير.؟

• ولم يكن صوتها، يعينها على التلفت والصراخ، وعندما رجعت الأكفُّ عن وجهها مبلّلةً بالدمع، أحسّت النسوةُ أن الفتاة غارقة بالبكاء، وأنّهن ذهبنَ بعيداً مع الصبية الجميلة، فتوقفن.. ودخلن جميعاً بالتضرّع وإطلاق النشيد:

يـا ذا العطا.. يا ذا الوفـا

اسقِ العطـاش تكـرّمـا

ثمّ انحنت إحداهن وكأس الماء في يمينها، فاحتضنت جسد عاتكة المسجّى، واجتاحته بالبكاء وصرخت في الجميع.

- ظلم النساء لبعضهن أشدّ هولاً من خيانة الرجال.

وانحنت لعناق عاتكة، كما تفعل المرأة بأختٍ غريبة قذفها طوفانٌ غريب.

حين استردّت عاتكة يقظتها.. وجدت جسدها ملفَّحاً بالشراشف.. مثلما تتلفّحُ عذراوات دود القزّ بخيوط الحرير، وحولها النسوة ملفّحات بالسواد ولَعْنِ الرجال، عند هذا نهضت عاتكة وسطهن، مثل وردةٍ، وأمسكت بالورق والقلم وبدأت بطرح الأسئلة علّها تعرف منهن شيئاً عن الأسباب التي أدّت إلى ارتياب النسوة وتصدّع السور العريق.

❖ ❖ ❖

• عندما وصل المصوّر زكريا إلى السور المنهار، وقف قرب الحجارة المشعّثة، وكان الوقت، يميل للغروب، فتأمّل الشمس ثمّ وضعها خلف ظهره، وأخذ لقطةً للأنقاض.. وأخرج ورقةً وكتب عليها.. (غروب السور) وفي نيّته أن تكون صورة العدد الرئيسية لتتربّع في أعلى الصفحة الأخيرة في الجريدة فوق أخبار الطرائف، والحوادث وعمليات السطو وأخبار النجوم.

• المحـرّر الطويـل محمـد عبـد الواحـد أخـرج ورقـةً وقلمـاً وقعد على طـرف الانهيـار، وتأمّـل الأنقـاض والحجـارة وتـذكّر ابـنَ خلـدون وكلامـه في العمـران وزوال المـدن والممالـك، ونهوضها ثمّ تنهّد وقال:

- هو الحي الباقي، وغير ذلك زائل من البشر، والحجارة والدواب، صحيحٌ أنّ مبدأ وحدة الوجود يؤكّد الوحدة والتعدّد ويتحـدّث عـن الـدورة والميلان فتتناسـخ الأحـوال. والعقائـد والبشر، والعظايات، لتستعيد نفسها وجنسها وفرصتها وتتم بالحياة والموت دورتها.

غير أنّ الشيء المحيّر أن رئيس التحرير الجديد.. قضى مدّة في الرئاسة دون أن يتحوّل إلى طائر رخ أو مكنسة، لقد وصلني خبر انهيار السور وأنا على الحافّة، وكنت أعدّ نفسي للصرخة التي أطلقها إعرابي مستريب

« **لو أن الفتى حجر** »

ليمسك الصحراء والزمان والأثافي والأوتاد.. وها أنا أنتبه للحجارة وأصيح، حتى الحجارة أصابها الحيف من وطأة الانضباط والخلود الطويل فتهاوت لتتفرد كلّ واحدة بنفسها وذكريات الأزاميل، ثمّ صاح ليخلص نفسه مما يؤثر فيه:

- ليت عاتكة تأتي.. لأكمل معها دورتي ووجودي فأتحد وأندمج، وأكون حجر الزاوية في جدار العزلة العميق.

❖ ❖ ❖

• عند المساء كان الجميع في قاعة الاجتماع الملحقة بغرفة رئيس التحرير. وقد أحضر كلّ واحد حصته من المقترحات والمقالات والزوايا والصور والتحقيقات ثمّ اقترب زكريا من سكرتيرة رئيس التحرير وأخرج الصورة التي عنوانها (غروب السور) ووضعها على طاولتها قائلاً:

- ما رأيك ألا تستحق هذه الصورة أن تكون الصورة الرئيسية في عدد الغد.. وفي أعلى الصفحة الأخيرة..؟

تأمّلت السكرتيرة امتثال الصورة باستعلاء وقالت:

- لا أعرف..!!

ثمّ رمتها إلى الطرف القصي من الطاولة، فانطلق زكريا إلى الطرف القصي من الطاولة وعندما وصل حمل الصورة وقال:

- لو أنّ هذه الصورة وضعت في صحيفة غير محليّة وغير وحيدة وفي بلدٍ آخر.. لأخذت مقابلها ثمناً يكفي لشراء عشر بلوزات فاضحات، لذلك أرجوك أن تتأمّلي، وتترفّقي لأتمكّن من تأمين المبلغ واسترداد آلة التصوير.

• وكان من نتيجة هذا الحوار المباشر أن رقت مشاعر السكرتيرة - امتثال واضطربت رموشها فامتدت يدها إلى أحدِ الأدراج وأخرجت الكاميرا الرهينة التي تخصّ زكريا. وقد أخرجتها بطريقةٍ مؤثّرة، ثمّ دفعتها إليهِ وقالت:

- يجب أن لا تراهن كثيراً على رقّة مشاعري واتساع صدري، ثمّ رفعت منديلاً لتمسح شيئاً رطباً قرب شفتها العليا من جهة مالك الحزين.

• في الاجتماع كان الجميع، وكان رئيس التحرير على المنبر ثمّ بدأ الكلام:

- اجتماعنا اليوم نكرّسه لهدف كبير ومثير للجدل والهدف كما تعرفون، يتعلّق بانهيار السور وقد قرّرت بعد دراسة وبحث تخصيص الصفحة الأولى للأخبار المحليّة والعالمية والصفحة الرابعة والأخيرة للمنوّعات والغرائب الدولية والصفحة الثالثة للإعلانات، أمّا الصفحة الثانية فقد قسمتها إلى نصفين، نصفٌ لأخبار المسؤولين المحليين وجولاتهم واجتماعاتهم المدهشة، والنصف السفلي من الصفحة خصّصته لبحث موضوع السور، أنتم تعرفون أن الصفحة الثانية من الجريدة هي من الصفحات المثير للغباء بسبب انصراف المواطنين عنها وعن الذي يُكتب فيها، غير أنّني لم أجد فراغاً ممكناً.. سوى القسم السفلي من هذه الصفحة لبحث موضوع الانهيار فهل من راغبٍ منكم لطرح فكرةٍ أو رأي.

• عند ذلك نهض الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد وكاد كتفه أن يرتطم برأس زميله المجاور وقال:

- المدرسة تقع قرب باب قنسرين وهو من أمنع أبواب حلب وأعلاها، وقد فتحهُ أبو عبيدة بن الجرّاح وإذا لم نتمكّن من فهم الأسباب التي أدّت إلى إعفاء خالد بن الوليد من قيادة الجند وتكليف أبو عبيدة بن الجرّاح فلن نتمكّن من معرفة الأسباب التي أدّت إلى انهيار السور.

• ثمّ قعد غير ملتفت لشيء سوى للأجزاء العارية من جسدي عاتكة وامتثال، لحظتها أحسّت عاتكة بالبرد فاحتضنت موادها ونهضت وبدأت الكلام:

- بعد الذي رأيته وسمعته وأصبت به من الصفعات لم يعد بوسعي سوى أن أقول، انتبهوا إلى الأمّهات.. كأنّما كنّ ينتظرن الفرصة للانقضاض. إنّ يفاعة وبرق بناتهن المجاورات تودي بهن لذلك يتطلّعن إلى الباب. وتُقسم كلّ أمٍ أن الدراسة والمعرفة تؤديان لكشف العورات لذلك أشرنَ إليّ ثمّ رفعن أكفّهن وبدأن الضرب، ومن خلال الصفعات، تنبأت بأنّ بناء المدرسة سيتداعى كلّه إذا انقطعت البنات عن الدراسة وانصرفن للمخارز وحياكة الخيوط والأحزان وفي اعتقادهن أنهن منصرفات لإغواء الرجال.

• ثمّ رفعت عاتكة زنديها محذِّرة فانصرف الحاضرون إلى بلاغة جسدها وأسندوا رؤوسهم إلى الجدران.

• كـان مالـك الحـزين في الإصـغاء والتأمّـل العظـيم ثمّ أصابته رعدة من كلام عاتكة فنهض ونفض غبار الاستكانة والتأمّل عن جسده ونفسه وقال:

- لقد كان الانهيار مؤثراً لأننا سمعنا به وهرعنا إليه، غير أن انهيارات كثيرة تحصل لا نسمع بها ولا نهرع إليها، وأنا أسأل لماذا أصيب سور مدرسة البنات بالانهيار ولم يصب سور الجريدة المحليّة الوحيدة بانهيار مماثل، إنّ من حقّ جريدتنا علينا أن نكون نحن السبّاقين في تحقيق الانهيار حتى نكون موضع الانتباه ويكون لنا نصيبٌ وافر في خطط الترميم والبناء والمصاريف أمّا وقد تماسك سورنا، فأنا أرجع ذلـك إلـى حـذر رئـيس التحريـر، وحـذر المحـرّرين وحـذر المحرّرات وحذر عمّال المطبعة وحذر المطابع والأوراق، وحذر الآنسة السكرتيرة وحذر الطيور التي غيّرت خطّ هجراتها، حتى لا تقع تحت أنظار الرجال الحذرين.

• بعد كلام مالك الحزين نهض الأستاذ عبد الفتاح نور الصباح القائم على أعمال الأرشيف في الصحيفة وشحذ نفسه وذهنه وقال:

- أما أنا وبعد أن عاصرت الأولين والآخرين وعرفت الأخبار والجدار المنهار. فأنا أقترح إدخال القضيّة برمّتها إلى الأرشيف قبل أن ترى النور ليصار إلى بحثها والتنقيب

عنها في زمانٍ قادم ومحرّرين مختلفين، ثمّ تباسط في الشرح فقال:

- إنّ الأرشيف أيها السادة الحضور أشبه ما يكون بمقبرةٍ وأنا أشبه ما أكون بحفّار قبور، والحفارون هم البشر المؤهّلون أكثر من سواهم للحفاظ على العالم من النسيان الوشيك، ثم نهض زكريا وأخرج الصورة، وذهب إلى المنبر، ووضعها أمام رئيس التحرير، وقد كتب تحت الصورة (غروب السور) ثمّ تابع، وأنا أقترح أن تكون هذه الصورة المعبّرة، صورة العدد يا أستاذنا الكبير.

• فرفع رئيس التحرير رأسه بانفعال وتأمّل الصورة.. وقال:

- كأنّما لم تكن للجريدة صورة أو ماهية، حتى يقترح أحد المصوّرين بأن تكون صورته.. هي صورة العدد..

ثمّ حمل رئيس التحرير الصورة وقرأ (غروب السور) ثمّ صرخ:

- ما هي دلالة هذا العنوان. وحلب مدينة مملوءةٌ بالأسوار، ثمّ إن دلالة الأسوار ملتبسة، فالأسوار تحمل معنى القوة والمنعة، وتحمل معنى الخوف من الآخر.. فإن كنت تبغي التعريض، فالقصد واضح، والغروب موجود.. لذلك نقترح تغيير الصورة واستبدالها بصورة فيها تماسك، وبنيان

مرصوص، وفيها شروق وشمسٌ ساطعة، ويمكن أن يتحقّق لك ذلك إذا وضعت السور خلفك والشمس أمامك وآلة التصوير بين يديك.

• فانفرجت الأسارير.. وتابع رئيس التحرير الكلام:

- إنّني وبعد التداول والإطلاع، أحسُّ أنّ الأمر يحتاج لبحث أدق.. وأكثر إحاطة، ثم نزل درجات المنبر واقترب من سكرتيرته وأحاط بها وهمس لها.. ثم رفع رأسه وأعطى الإذن بتأجيل الاجتماع.. ومتابعة البحث ويجب.. قال مؤكّداً:

- يجب أن نغوص ونستكشف حتى ولو استهلك منّا البحث أسبوعاً برمّته، إنّ عدد جريدتنا المكرّس للسور يجب أن يثير حفيظة سور الصين.

ثمّ اختتم الاجتماع.. وتراكض الجميع إلى الممرّات محدثين أصواتاً تشبه الانهيار.

في اليوم التالي للاجتماع، انقسم المحرّرون إلى مجموعات، وعلى الدرج الموصل إلى مفترق دُكّاني الدجاج المشوي، عند شارع العبّارة.. اقترب المحرّر الطويل محمد عبد الواحد من واجهة الدكّان، وكانت قربه عاتكة ومالك الحزين، (ثمّ نظر باستياء) وتأمّل السفود الذي يخترق سبع دجاجات عاصيات، ويدور بهن قرب واجهة الدكّان.. والدجاجات محمرّات من الخجل والحرارة. وعندما أعياه التأمّل، أحسّ

بالحيرة والاضطراب، وانتزع أنفه وعينيه من المشهد العظيم وقال:

- إنّني أشمّ رائحة مؤامرة، إن رئيس التحرير يحاول تضليلنا، لذلك سأذهب مرّة أخرى للسور، لأعتزل الناس، وأبدأ التنقيب، فعسى أن يلهمني الله الأسباب التي لم تستطع أبصاركم الأرضية كشفها، فهل تتفضّل الآنسة عاتكة بمرافقتي.

• اندهشت الآنسة عاتكة من الطلب وقالت:

- آسفة، أنا ذاهبة مع مالك الحزين إلى المؤتمر التربوي الذي سينعقد من أجل بحث موضوع السور.

- لا بأس.. لا بأس.. ما دام الذهاب معي متعذِّراً فلأصطحب معي (دجاجة محمرّة).

• ثمّ انسلّ من الجماعة ودخل إلى دكّان بائع الدجاج المشوي.

لذلك ضحكت عاتكة، وضحك مالك الحزين.. وقال:

- هل يعقل أنّ السور انهار لأنهُ حاول أن يضحك.

- ربّما.. قالت عاتكة.

ثمّ وضعت ذراعها تحت إبط مالك الحزين، وتابعت الضحك والكلام.

- إنّني أنصحك بعدم الاستسلام للضحك يا مالك الحزين.

- ولماذا..؟

- حتى لا يصيبك ما أصاب السور.

- إن كان سيصيبني الانهيار، فمن الجهة التي تمسكينني منها.

- هل أتركك..؟

- ولماذا..؟ حتى أنهار دفعة واحدة.

- كأنّك تتمنّى الانهيار وتترقّبه..

- لقد بدأت المقبرة تؤتي أكلها، إن الإمساك بك من كلّ الجهات، يشكّل اتحاداً بين الذات والموضوع، حلولاً في الآخر الكلي.

- ومن هو الآخر الكلي، إيّاك أن تقول بأنّهُ أنت.

- أبداً.. إنّهُ أنتِ.

- وأنتَ.

- أنا كيان عابرٌ يحبُّ الاتصال بالوجود ولا يحبُّ الاتحاد به أو الذوبان فيه.

- وما هو الفرق..؟

الاتحاد يذيب الآخر ويلغيه ويشكّله في صورة مغايرة، وهو يشبه كثيراً ما سيحصل بين الأستاذ محمد عبد الواحد،

والدجاجة المحمرّة، أما الاتصال فهو يحمي الخصائص والمزايا.

- ويفاقم العزلة والريبة.

- أحياناً أحبُّ العزلة والريبة.

ثمّ صعدا معاً الدرج المؤدي إلى الاجتماع.

❖ ❖ ❖

• في اجتماع مسؤولي التعليم، الذي حضرته عاتكة ومالك الحزين، نوقشت فكرة دمج المدرستين الإعداديتين (مدرسة عبيدة بن الجرّاح للبنات، مع مدرسة الوحدة العربية للبنين) وبعد بحث في الظروف والضرورات وافق الجميع على فكرة الدمج بين المدرستين، أمّا فكرة دمج الصبيان بالبنات ومتابعة العلم ببراءة ودون منغصات، فقد لقيت عنتاً ومعارضة من الغالبية وقد نهض واحد من الرجال الداعين لتعميم العزل والانتصار له فقال:

- صحيحٌ أن الخلط يطبق في كثير من الأمور في حياتنا، غير أنّني أشجب الآن أي شكلٍ من أشكال الخلط بين الطلاب والطالبات في المدارس والمجالس والحافلات، وعلى الأنظمة التربوية والتعليمية أن تناصر العزل وتعاضده، لأن العزل يؤدي للحذر والريبة، والريبة والحذر شأنان نطالب

بهمـا، ونباركهمـا، فهمـا الـضمانة لعـدم اخـتلاط المفـاهيم واضطراب أنساب المواليد.

• كـان مـدير مدرسـة الـصبيان يتحـرّك بانفعـال، وتـدور حـدقتاه بيُتْمٍ واضـطراب وهـو يـسمع كلمـة العـزل تتـردّد في الأرجـاء فهـو مـن أنـصار الوحـدة، والوحـدة شـأن يحبّـه الكثيرون، ويطالبون به:

- وكيف سيتم العزل والمدرسة واحدة..؟

تساءل مدير المدرسة وهو ينظر إلى فكرة الخلط والـدمج بعين الرضا.

• ثمّ نهضت مديرة المدرسة الأخرى، السيّدة مروة الداخل وصرخت صوتاً من قحف رأسها قائلة:

- الخلط شيمة تتفق مع رغبـات الرجـال والعـزل صـفةٌ لا تحبها النسـاء، لذلك أؤجـل مـوافقتي حتـى آخـذ رأي زوجـي.. فـإن وافـق علـى الخلـط وافقـت، وإن رفـض فقـد جنـى علـى نفسه وظلم وليس من امرأةٍ تعصمه سوى أمّه العجوز، ولـيس من مكان ملائم لنومه سوى بيتها اللعين.

• بعـد انتهـاء مـديرة المدرسـة مـن الإدلاء ببيانهـا البليـغ انصرف الجميع للمداولة والغضب، وكانـت فكرة العـزل أكثـر حضوراً وتأثيراً وكاد المتحمسون للعزل أن يفصلوا بين عاتكة

ومالـك الحـزين، القاعـدان قـرب بعـضهما، وبعـد المداولـة والتصويت تمّ الاتفاق على إحداث دوامين منفصلين في اليوم الواحـد، دوام في الـصباح و آخـر بعـد الظهـر، يتنـاوب علـى الحضور فيهما.. الصبيان والبنات.

• خـلال الاجتمـاع كتـب مالـك الحـزين علـى أوراقـه «لقـد أفلح المجتمعون في إعادة تشييد عددٍ كبيرٍ من الأسوار، وهـم يناقشون مشكلة انهيار السور»، وكتبت عاتكة: « أحسُّ أحياناً بأن المقبرة أليفة ومترامية، ورغم ذلك أظلّ متحمسة لفكرة بنـاء سـورٍ يحـيط بـالمقبرة، ليـتم عـزل الأحيـاء عـن المـوتى.. ويخيـل لـي أن تلـك هـي الطريقـة الوحيـدة لمنـع المـوتى مـن التحـرّك علـى هـواهم.. المـوتى.. لـو أنّهـم يتحركـون علـى هـواهم.. لاستعدنا مـن خـلال ذلـك كثيـراً مـن الوجـوه التـي نحبُّهـا.. آهٍ يـا أمّـي، يبـدو أنّ المـشكلة كامنـة في الكلـب.. فهـو الذي يحول بين الأرواح وبين تحقيق غاياتها». ثمّ قالـت لمالـك الحزين:

- إنّنـي رغـم الـذي جـرى في الاجتمـاع خرجـت ولـدي إعجاب كبير بالمدير وأفكاره، وبالمديرة وطريقتها في تصريف الأمور.

• ثمّ تأبّطت مالك الحزين من ذراعه وهمست:

- هل يمكن احتمال ذلك دون فنجان من القهوة؟

التفت إليها مالك الحزين وقال:

- ذلك أضعف الإيمـــان.

- فما هو أقوى الإيمان.؟

- أقوى الإيمان أن ينهض السور، ويرفرف.. ثمّ يطير.

يالها من فكرة كادت أن تطير لها عاتكة من الفرح، ودون قصد ضغطت ذراع مالك الحزين على صدرها، فأصابها برقٌ من النشوة، أضاء حلْمة نهدها المجاور للذراع، لذلك ازدادت احتضاناً لذراع مالك الحزين.

قال مالك الحزين ممازحاً:

- هل تعرفين بأنّك تشبهين رئيس التحرير!!

- وكيف؟

- إنّ غاية ما يتمنّاه رئيس التحرير.. أن يمسك بذراع المحرّر ليمنعه من الكتابة على هواه. وها أنمت تمسكين بذراعي.

• لذلك التفتت عاتكة بدهشة. ثمّ تهدل ذراعها الذي يحتضن ذراع مالك الحزين. وبعد عددٍ من الخطوات.. قالت:

- أنت شديد القسوة.. وأنا أشفق على زوجتك منك.

- تشفقين على زوجتي السمينة؟

- القسوة هي التي تجعل الزوجات سمينات.

- ولكن السمنة شيءٌ لا تحتمله الشياطين.

- لا تحاول تغيير الموضوع. فأنا ما زلت أرغب أن أشرب القهوة معك.

- والقسوة التي أتمتع بها

- من قال لك بأنّني أكره الرجال القساة؟

• حين خرجا معاً من الاجتماع.. كانت القلعة أمامهما.. نظر مالك الحزين إلى القلعة وصاح:

- يا اللّه تلك هي القداسة، وهي مؤسّسة على الأسوار، لذلك يتحقق الاختلاط في المعاني، ويضطرب الناس في الفصل والتفريق بين الاستبداد والقسوة والقداسة.

ثم عبرا معاً.. عاتكة ومالك الحزين.. بوابة الأسواق المجاورة لمديرية التعليم، حيث عقد الاجتماع، واجتازا سور المشفى الوطني، وصارا أمام المقهيين المطلين على مدخل القلعة. وكانت مجموعة من السُيّاح والرجال المحليين، تقعد وتدخّن النراجيل وتتأمّل..

اقتربا من طاولة فارغة وقعدا، ثم جاء النادل مستعجلاً بعد أن أشار لهُ مالك الحزين:

- نعم ماذا تطلبان؟

- نريد فنجانين من القهوة.

- لا توجد قهوة، كلّ الطلبات موجودة عدا القهوة..!!

عندها التفت مالك الحزين إلى عاتكة وسألها:

- يبدو أن القهوة تحض على اليقظة لذلك تصبح نادرة..

فهل تشربين الشاي..؟

- لا.. لا أشرب الشاي

- هل تعتقدين بأنّ الحرب يمكن أن تقوم؟

- أفضّل أن نقوم نحن..!

نهضت عاتكة وهي تضحك وتتابع الكلام

- أليس قيامنا أكثر سهولة وأقلّ خسائر من قيام الحرب.

• أحياناً أتذكّر الشيء فأحسّ بطعمه في فمي.. لذلك يخطر ببالي الآن.. أن أتذكّر طعم القهوة وليس الحروب.

ثمّ عادت عاتكة ثانية لتتأبّط ذراع مالك الحزين عند ذلك نظر مالك الحزين في وجهها وتذكّر طعم القهوة، وتحرّكا معاً. وهما يجاوران خندق القلعة وسورها العظيم.

❖ ❖ ❖

أما الأستاذ محمد عبد الواحد، فقد تأمل عظام الدجاجة التي التهمها، وتبلّلت عيناه بالخطيئة وذكريات النساء، فالصوفية في اعتقاد الجميع هي تذكر اللحم

والابتعاد عنه، وليس قضمه وبلعه كما يفعل الذئب بحمل ضئيل.. لذلك نهض وصاح.. أنا كائن عصيٌّ على الاحتواء، تضطرب من حولي المناهج والطرائق والشهوات، والتصوّف الذي أؤمن به حالة من الوجد الخالص الذي يؤلف بين التهجد والضلال، ثمّ التفت إلى طائرٍ جميل حطّ على الطرف المشيّد للسور، وبدأ يستفتيه ويسائله، هل وصلت رسالة الخليفة عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد في هذا الموقع، وكيف تلفت سيف الله المسلول حين همس له أبو عبيدة بالنبأ..؟ ألم يحاول خالد بن الوليد أن يطلب تأجيل كتاب الخليفة عمر حتى يتمكّن من فتح حلب. حلب التي أغوت الكثيرين.. هل كانت على هذا القدر من الفتنة حتى يحال بين ابن الوليد وبين فتنتها..

ثمّ بكى المحرّر الطويل الأستاذ محمد عبد الواحد، وصعد أطلال الحجارة والسور.. وحين شعر بثقل الطعام في معدته تنهّد، وشمّر عن زنديه ونظر إلى السماء وصاح:

- يا سيف الله.. يا خالد، لقد عبرتني الأيام والسنون، ولم تترك خليةً في جسدي خالية من همزة حاقد أو لمزة حسود، وها أنا أبلغ من العمر ما ينهك جداراً، دون أن أصل في الجريدة لمنصب رئيس التحرير، فلا نامت أعين الجبناء.

• ثم أصابه مغص وإعياء شديد. فترنّحَ واضطرب.. وأصيب بالصفرة والزوغان.. ولولا مرور أحد العابرين وحمله إياه لتصدّع وتفكّك. وأصابه ما أصاب السور.

• ما إن تماثل المحرّر الطويل لليقظة حتى تشكّلت في ذهنه جملة لا يحيد عنها.. يردّدها حين يلمح سكرتيرة المدير، وينتبه إلى الخط لضئيل الفاصل بين نهديها الواسعين.. وهذه الجملة هي (لا نامت أعين الجبناء) ثمّ يتقدّم إلى قبضة الباب ليقتحمها متجهاً إلى طاولة رئيس التحرير ليلقي على مسامعه درساً طويلاً في الصداقة والواجبات. ورسائل العزل، وفتح المدن والأمصار ونهوض الأسوار وانهيارها.. دون أن ينسى الحديث عن الصدأ الذي حرّك في

(سيف الله) هذا الصراخ الطويل.

❖ ❖ ❖

• وهكذا ذهبت طالبات إعدادية أبي عبيدة بن الجراح، للدوام في مدرسة الوحدة للصبيان، وبدأ الحذر والتلفت يصيب المعلّمات، وهن يقمن بالإشراف على تطبيق العزل والدعوة له، العزل الذي أودى برجل هائل فتح الأرض.. اسمه خالد بن الوليد.

وقد حاول مدير مدرسة الصبيان القيام بزيارات مجاملة وحسن جوار إلى غرفة إدارة البنات المجاور ليتمكّن من انتهاك العزل. لكن السيّدة مروة الداخل مديرة القسم فهمت القصد من زيارته. فاستقبلته بحذرٍ وتململ، وحذت حذوها بقية المدرّسات ولو أنهُ قعد في غرفة إدارة البنات مدّة أطول محتملاً التجاهل والازدراء الذي قابلته به المعلّمات، لدخلت عليه مدرسة مادة التاريخ، ولشعرت بوحدة روحه واحتقانه، و لتقرّبت منهُ واحتكّت به.. غير أن مدير مدرسة الصبيان استعجل الخروج، وهكذا لم يحصل التقارب، ولم يحصل اللقاء، وظلّ كلّ واحد منهما مثل جزيرة معزولة يبحث عن ملاذ، أو صرخة في جدار العزل الكبير.

- أما العزل الذي يطبق في المدرسة وداخل الأسوار، فقد تمّ انتهاكه بصورة آسرة، وكان الطلاّب المناجيس، والطالبات اللامعات يتجمّعون أمام السور والباب الرئيسي، وعندما ينفتح الباب ويتدفّق المنصرفون، يكون المنتظرون في أقصى التفتح وأقصى الانتباه. وهناك خارج الحصار والقوانين يختلط النهران، نهر الداخلين، ونهر الخارجين، ويتشكّل المشهد العظيم وتتشكّل اللمسات والهمسات ويحاول كلّ كائنٍ أن يبثّ همسته أو لمسته أو مواعيده في رفّة واحدة أو إشارة أو حرف.

في تلك البرهة، يكون مدير مدرسة الصبيان على الشرفة وحين يعاين المشهد ونهر الحياة العظيم. يبدأ بالضحك العميق.. حتى لتكاد مديرة البنات المجاورة أن تقع على إفريز الشرفة وقد استولى عليها الغيظ والشعور بالانتهاك المرير.

• واحد من الطلاب، وواحدةٌ من البنات اشتبكا معاً والتصقا ولم يعد بمقدورهما الفكاك. لم يكونا يريدان، ولم يبذلا جهداً للعناق، فقط استولى عليهما شعورٌ باهرٌ ساقهما سوقاً لهذا اللقاء، كلّ منهما لم يكن يجاور الآخر، وكلّ منهما كان واقفاً على أطراف الحشد والتدفّق العظيم، لكن وقد غشيت الغاشية الحشد، تحرّكا معاً في لحظةٍ واحدة، والتصقا بقوّة وعناد كما يفعل حجر المغناطيس بقطعة الحديد، وكانت الفتاة فزعة وباكية ولم يكن الشاب راغباً غير أن القانون عندما يحقق نفسه وطبيعته، تتفلت الإرادات وتتعثّر، ويصبح الحذر بضاعة بائدة. وكان بكاء البنت موجعاً وقد سعت للتخلّص والفكاك.. لكنها لم تقدر، وقد حاول المحتشدون تقديم العون فلم يتمكّنوا من فكّ الارتباط والأواصر، وظلّ الأمر على حاله من الغرابة حتى تدخّلت الشرطة، واقتادتهما إلى السيارة فتحرّكا مثل كائن واحد وجلسا مثل كائنٍ واحد وحين أدخلا غرفة الاستجواب. انصرف المختصون لتحليل الظاهرة وفك الارتباط بين

الجسدين الفزعين.. وبعد مدّة نجح المحقّقون في تحويلهما إلى قبيلة من البشر المتنافرين.. فخرجوا من غرفة الحجز.. فرادى.. فرادى.. ويكاد الواحد من فرط العزلة والكدمات أن لا يكون.

وقد وجد المختصون في ظاهرة الالتحام الجائرة تلك، فرصة للإسراع بترميم المدرسة وإعادة بناء السور المكين.

ورغم ذلك، كانت الفتيات. حين يصلن إلى بيوتهن يخرجن سريعاً إلى الشرفات ويتأمّلن الهواء بضفائرهن الحرّة وعيونهن الرطبة ويَحزَنَّ في معرفة الأسباب.. ولا ينتبهن إن وقف شاب في الزوايا الغامضة والظلال ليتأمّل ويحرّك ذراعه.. كمحاولةٍ لإلقاء التحيّة باتجاه شرفةٍ تخصّه وضفائر تقلق روحه وعينيه.

• بعد الانتهاء من بناء السور كان المحرّرون منشغلين بتحضير تقاريرهم واستطلاعاتهم حول أسباب الانهيار، وقد جمع رئيس التحرير الصور والوثائق والأخبار والتقارير المكتوبة، وبدأ الكلام في قاعة الاجتماعات بحضور كافّة المحرّرين:

- لقد استطعتم بحكمة وحنكة، إعداد تقارير وافية شافية وتشير إشارةً واضحة للأسباب التي أدّت للانهيار ولدي اعتقاد أنّ الظروف المختلفة، لعبت دوراً واضحاً في

تقويض الحجارة والسور، أمّا تقاريركم اللعينة هذه فستلعب دوراً فاضحاً في تقويضي والنيل من منصبي بصورة لا ينفع معها أيٌّ ترميم.. ورغم ذلك أعدكم بإنزال موادكم كما وردت دون حذفٍ أوتغيير.

• وخلال كلام رئيس التحرير و تعرُّقهِ رنَّ الهاتف.. فحمل السماعة.. وكان الرجل المتحدّث على الطرف الآخر مسؤولاً مركزياً رفيعاً. وكان الصوت قويّاً وحاسماً:

- يجب إيقاف العمل بطباعة عدد الغد من الجريدة واستبداله بعددٍ جديد.. وستصلكم المواد والعناوين المطلوب تثبيتها تباعاً مع ضرورة اليقظة والانتباه بسبب الظروف التي اقتضتها الحرب.

• في اليوم التالي.. نهض الناسُ وقد ملأ غبار الحرب كلَّ العيون. وفي مبنى الصحيفة ارتفع صوت محرِّر الصفحة الثقافية (الأستاذ محمد عبد الواحد) بالدّوي وهو يعلن:

- إنّها حربُ البراميل.. وهي موجّهة ضدّ الفتيات الجميلات.. والشرفات. وقد تكرّرت تلك الصرخات حتّى لم يعد قادراً على احتمالها رئيس التحرير.

• عاتكة شعرت بمحنة الرجل.. فذهبن إليهِ واقتربت كثيراً منهُ وسألتهُ عن الأسباب والدوافع، وبأنّها مستعدّة

للتعاون ثمّ اقتربت بصدرها من وجهه وبرمّانتي ذراعيها المكشوفين من حيرته.. غير أنّه وعلى غير العادة لم يلتفت ولم يدخل في الغيبوبة والهيمان.. وإنّما رفع رأسهُ بكبرياءٍ وقال:

- لقد استفحل الأمر.. وما عادت اللمسات والنظرات توقف الانهيار. وغابت الفتيات عن الشرفات، وحلّت محلّهنَّ البراميل.

- والحل..؟ (تساءلت عاتكة بحيرةٍ وابتهال).

- الحل واضحٌ وجلي. يجب إعادة الفتيات الجميلات إلى الشرفات وإبادة النفط والبراميل حتى ترجع الأمة لرشدها.. عند ذلك أستطيع أن أتفرّغ لكِ. مغرّقاً عناصرَك في حمأةِ الرغبات والكلام الجميل.

• بعد الجملة الأخيرة نهضت عاتكة غاضبة وانتزعت كفّها من قبضتيه وهرعت إلى الممرّات.

• وفي الصفحة الثقافية التي يشرف عليها الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد، كانت كلمة (البراميل) تتردّد أكثر من سواها، وكانت الخطوط الفاصلة بين الموضوعات تتشكّل من البراميل الصغيرة المتلاحقة بصورة عامودية أو مستلقية، حتى الأقواس والنقاط والفواصل أخذت أشكال البراميل الصغيرة وبدأت الشعارات التربوية والسياسيّة ترتدي ملامح

(براميلية) مثل (الشرطة في خدمة البراميل) أو (لا تؤجّل براميل اليوم إلى الغد) أو (البراميل نصف المجتمع) أو (البراميل أصدق أنباءً من الكتبِ) أو (قل لي من برميلك أقل لك من أنت) وبدأت مصطلحات أدبية مثل (ثقافة البراميل) أو (أدباء البراميل) أو (نقّاد البراميل) أو (مهرجان البراميل) تغرق المواد الثقافية في الصفحة الداخلية للجريدة مما أثار حفيظة أصحاب الكازيّات وشاحنات النفط فانهالت على صندوق شكاوى المواطنين الكرام مئات الرسائل التي تستنكر وتؤيد مما أثار قلقاً واضطراباً لدى رئيس التحرير لذلك بدأ يفكّر بجديّة، بانتزاع الصفحة الثقافية من عهدة الأستاذ محمد عبد الواحد، وتسليمه مهمّة مستشار رئيس التحرير للصحف الجدارية. والذي أجّج الوضع ودفع عدداً كبيراً من الجهات في تسريع التغيير.. حصول شأن داخلي، اضطرب له الأستاذ محمد عبد الواحد مما أدّى إلى تشويش صورته ومكانته.

وقد حدث ذلك عندما ذهبت امرأةٌ متردّدة إلى منزل الأستاذ محمد عبد الواحد.. والتقت بزوجته في غيابه، وهمست لها بأنه تربطها بزوجها علاقات حب ملتهب ووفاء، وأن علاقتهما كانت في أوج التأجج والإخلاص.. أما الآن وقد وقعت الحرب فقد تغير الرجل وتهدل وضاع.

• عند هذه النقطة نهضت الزوجة وبدأت بالصراخ والولاويل، ثم دخلت في طور الارتجاف، فجذبتها المرأة من ثوبها فوقعت أرضاً.. وحين تماثلت الزوجة لليقظة نظرت في وجه المرأة وقالت:

- ما يحصل معك لا يحصل معك وحدك.. وإنما يحصل معي ويقلقني.. فسبحان الله.. كأنما نحن امرأتان في امرأة واحدة، وقد صدق المثل حين قال: (رب شريكة لك في زوجك لم تلدها أمك).

فقالت المرأة:

- نحن امرأتان أوقعت بنا الحرب والأقاويل وإن ظلت أحوالنا هكذا سنتبهدل ونميل.. وعلينا أن نعمل عملاً قبل أن يتسرب الرجل ويضيع.

- والحل (سألت الزوجة بامتنان)

- الحل أن نذهب إلى مخفر باب الخيزران، ونتصل برئيس المخفر، ونبلغه بأحوالنا، وتقلبات أجسادنا، فليس سوى الحكومة من يعيد الأزواج والأحباب الضالين، إلى غرف النوم وجادة الصواب.

• ثم أخذت المرأتان نفساً واحداً، تعبيراً عن الارتياح الذي أحستا به بعد ذكر الحكومة ودورها في لم الشمل وصيانة الأعراض. خلال هذه الحوارية التضامنية، رنّ جرس

الهاتف فامتدت إلى السماعة اليدان وبدأت كل يد الجذب إلى ناحيتها حتى تعرف أبعاد الاتصال. ولولا قيام الزوجة بلطم المرأة الزائرة.. لما تمكنت من امتلاك السماعة وتقريبها من أذنها ومعرفة المتكلم.

• وكان صاحب الصوت هو الزوج فاعتذر لزوجته عن تأخره في الحضور، لأسباب مهنية، تتعلق بسوء المواصلات واقتراب قافلة من البراميل منه ومحاولتها سد الطريق عليه، للحؤول بينه وبين الوصول لتناول وجبته المعتادة. وما دامت البراميل شديدة الحضور والكثافة فأنا لا أستطيع أن أعد بشيء.. ثمّ أغلق السمّاعة بانفعال وهكذا وجدت الزوجة نفسها وحيدة ومضطربة، وليس لديها من تهمس له وتشتم في حضرته، لذلك اضطرّت لإخراج الزائرة من غيبوبتها وحملها على الوقوف، لسرد أخبار زوجها على مسامعها وعندما انتهت، نظرت المرأة في وجه الزوجة باضطراب، وصاحت:

- أنّها الخيانة.

- وكيفَ عرفْتِ.

- يستطيع الرجل أن يقفز فوق البراميل ليصل إلى البيت ويتناول وجبته، لكنّه لا يستطيع أن يقفز فوق المرأة إذا

اعترضت طريقه وشوّشت رؤياه، لذلك أحسّ بوجود امرأةٍ ثالثة.

- هل يفعلها الرجل وينسَ وجبته.

- المرأة الجديدة للرجل.. أشهى من الوجبات.

- هي الخيانة إذاً.

- هي الخيانة فأعدي نفسك وما يعتمل في ذهنك، ولنذهب معاً إلى أقرب المخافر فالشرطة عندما تضطرب الأحوال تصبح أكثر تفهّماً للنساء من الرجال.

وهكذا ارتدت المرأتان ما يستر البدن ويفضح المخاوف واتجهتا معاً إلى مخفر باب الخيزران وهو الباب الذي لم يتمكّن تيمورلنك من هتكهِ، وتشتيت عناصره.

وظلّ الباب مُصاناً حتى وضعت الشرطة مخفرها إلى جواره.

ثمّ عبرت المرأتان عدداً من الحارات والمنعطفات حتى وصلتا إلى باب الخيزران، ومخفره الذائع الصيت.. وهو من أكثر المخافر تجاوباً مع النساء وقضاياهن العادلة وقد أعلن رئيس المخفر في لقاء حاشد باللصوص والموقوفين بأنّ المرأة على حق دائماً.. وأنّ غرفة حجزه لم تستقبل سوى الأزواج المارقين.

وكان باب الخيزران في أوج الازدحام، والرجال والأولاد محتشدون أمام المكتبات لشراء الكتب والدفاتر والمحافظ استعداداً لقدوم العام الدراسي.. وحين عبرت المرأتان دون أن تلتفتا إلى المكتبات آثرنَ الريبة، والتفتت إليهن الرؤوس

والظنون، وعندما صعدت المرأتان درج المخفر المجاور للمكتبات.. زفر الرجال بعد أن وقر في نفوسهم أن رجلين بريئين سيكونان عرضة للأصفاد والتوقيف بعد قليل.

• حين دخلت المرأتان إلى غرفة معاون رئيس المخفر.. نظر إلى وجهي المرأتين وطلب منهما أوصاف الرجلين الواجب اعتقالهما.. من أجل أن يسرع في إجراء اللازم.

عند هذه النقطة صاحت المرأتان بصوت واحد:

- لا نريد الإيقاع برجلين دفعةً واحدة.

- فكم هو العدد الذي ترغبان الإيقاع به.

فصاحت المرأتان:

- رجلٌ واحد.

- رجلٌ واحد لامرأتين؟ هذا لا يكفي.

قال معاون رئيس المخفر

- فما هو المطلوب؟

قالت المرأة غير الزوجة.

- نريد رجلين لنعتقلهما، لذلك يمكنكما الذهاب إلى الطريق، لإغواء رجل آخر والإيقاع به حتى تتحقّق الغاية.

- ولماذا تريدون رجلاً آخر..؟

• ردّت الزوجة بانفعال.

- حتى يتحقّق التوازن يا مدام.. أجابها المساعد باهتمام.

ردّت المرأة على كلام حضرة المساعد:

- ألا يستطيع الرجل الواحد أن يغوي امرأتين ويوقع بهما.

- يمكن.

- إذاً فنحن هاتان المرأتان، وإن كنت تظننا من صنف آخر من النساء فقد أخطأت وتماديت.

• في اللقاء التالي وبعد أن قعدت المرأتان بين يدي رئيس مخفر الشرطة، وتحدّثتا إليه.. أوقفهن عن الاسترسال ثمّ بدأ عليهن طرح الأسئلة فقال:

- هل يغضب المتهم وينفعل يوم بزوغ العادة والحيض لدى واحدة منكما.؟

أجابت المرأتان بصوت واحد وعتبٍ شديد:

- لا يغضب ولا ينفعل.

- تلك إشارةٌ وافية على الشروع بالخيانة، فهل تَرِنُّ أجهزة الهاتف في بيتكما وعندما ترفعان السمّاعتين، لا تسمعان ردّاً أو صوتاً، وإنّما حيرة و لهاثاً.

- نرفع ونسمع.

- تلك إشارةٌ ثانية، والثالثة هي القاتلة، وأرجو أن تكون حاصلة وواضحة، حتى لا نتعب كثيراً في التحقيق..

- نرجو ذلك.. فاسألنا عنها.

قال رئيس المخفر بعد تورّمٍ وانفعال شديد:

- فهل يدير ظهره على السرير حين ينام.. ثم يبدأ بالشخير.

- يشخر ويدير..

- وهل ينفق الساعات الطوال أمام الكتاب والتلفزيون رغم ارتفاع ثمن الكتب ورداءة البرامج.

- ينفق الوقت ويتردّد في إنفاق النقود.

- وعندما يتفرّج على التلفاز.. أين ينظر وكيف.

- ليس له ملاذ سوى سيقان الممثلات والعارضات.

- ذلك هو المروق الصريح والارتكاب البيّن.. فاتركاه لي، فأنا قادرٌ على إخراجه من طبيعته وتحويله إلى كائنٍ مستجيب، أما عنكما فأنا أنصحكما بالحذر وأطالبكن

بالخلاعة، والشفافية والتقصير وإظهار الرغبات الصريحة، وإخفاء التجاعيد. فهن قاصمات لظهر الرجل ومرغمات لهُ على الخيانة والتبديل..

• في نهاية اللقاء خرجت المرأتان من المخفر، والغرابة تنهك أنوثتهما ويشوّش خطاهما سوء التأويل.. ثم قالت العشيقة للزوجة:

- امرأة واحدة قليلة على الرجل، وامرأتان كثير، فلتحاول الواحدة منّا أن تعمل وسعها لتبيد الأخرى. لأن الرجل الداخل إلى المخفر مختلفٌ عن الخارج من المخفر ويكاد لا يشبه الرجل الذي عرفناه وتداخلنا فيه، فالحيطة الحيطة، والحذر الحذر أيتها الأخت التي ستخسر الكثير.

• كان الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد، قاعداً على حجرٍ مجاور لسور المدرسة الذي شيّد البنّاؤون معظمه وظلّت بعض الحجارة المجاورة منتشرة حوله تنتظر استكمال التشييد، وكان قعوده وانصرافه للتأمل، يقرب بينه وبين أجداث وعظام الرجال الأولين وذكرياتهم. وكانت على يمينه وشماله صخرتان كبيرتان مسطّحتان، وكان على التي من جهة الشمال كتاب من كتب الفتوحات المكيّة للإمام الأكبر الشيخ محيّ الدين بن عربي، وعلى وجه الصخرة من جهة

اليمين تربّعت دجاجة مشوية ملفعة بورق مصقول من مجلاّت الأزياء وقد ظهرت على حواف الدجاجة صورة لنسوة لا تستر عوراتهن سوى الأخطاء والبريق، لذلك تأمل النسوة، وتأمل الدجاجة والكتاب وحار ثمّ تلوّن ووقع على الدجاجة، مغشيّاً عليه. وعندما التهم بفمه الدجاجة وبعينيه التهم صورَ عارضات الأزياء، نام فاقترب من الأستاذ شرطيان من مخفر باب الخيزران وهمسا في أذنه ثمّ أمسكاه وحين ابتعدا به، تذكّر كتاب الفتوحات المكّية الذي نسيه فوق الصخرة الثانية، فصاح بصوتٍ لا يفهمه رجال الشرطة:

- أدركنا أيها الشيخ الإمام.. أدركني يا محيّ الدين.

• عند ذلك اقترب منهُ أحد الشرطيين وسأله:

- ماذا تريد أيها السيّد؟

قال الأستاذ:

- أريد أن أنام..!

• حين وصلت السيارة إلى المخفر كان عالياً صوت الشخير، وعندما اقترب رئيس المخفر من الصوت وعاين ظهر الرجل.. أدرك فداحة حال المرأتين، ثمّ طلب من الرجال إيقاظه وإدخاله.

وعندما استيقظ ونهض، أُدخل إلى حضرة رئيس المخفر، فتأمّل وتذكّر ثمّ سأل عن الأسباب، فماطله رئيس المخفر في

الجواب، عند ذلك صعد الأستاذ الطويل على الكرسي المجاور لطاولة رئيس المخفر، فازداد طولاً، وإشراقاً، وتمكّن من كشف سطح الطاولة برمّته، ثمّ بدأ خطبته العصماء:

- اعتماداً على أي المذاهب تمسكون رجلاً مثلي وتزجّونه في الحبس، وأنا لم أكن في يومٍ من الأيّام، مثل الحلاّج أو النسيمي ولا حتى مثل الأسدي خير الدين، وأنا لم أدع في ساعة أو يوم لدوال الدول وبلبلة الحكّام، وإنّما تفجؤني الحدثان وتطوح بي إلى جهات الحيرة والعماء.

ويكاد طولي الرهيف أن يعينني على التملص من قبضة المتنفذين، وها أنا وليس في جسدي خلية لا يوجد فيها موضع لوشاية أو تأنيب، وها أنا وفي آخر حياتي أحتجز كما يحتجز اللصوص ورجال المعارضة الأجلاف. فلا نامت أعين الجبناء.

• ثمّ ترجّل عن الكرسي وقعد وصمت وجمد، وصارت حالهُ مثل حال الصخرة التي نسي عليها كتاب الفتوحات المكّية، كأنّما لم ينبس في حياته بحرف، لذلك نقل إلى غرفة الحجز حتى يرتدع ويلين ويتذكّر شيخه الأكبر الإمام محيّ الدين.

• وفي محاولة من رئيس المخفر لإخراجه من حفرة الصمت التي أوقع ذاته فيها، فقد اقترح عليهِ أن يكون رئيساً

لتحرير صحيفةٍ محلية وحيدة تصدر في غرفة الحجز ويكون رئيس المخفر قارئها الوحيد، وكادت آسارير الأستاذ محمد عبد الواحد أن تنفرج بعد أن سمع من رئيس المخفر بأنّه من الممكن أن يكون رئيساً لتحرير صحيفة محلية وحيدة، وكاد أن يقرّر التوقف عن الصمت الذي نذرهُ على نفسهِ بأنّهُ لن يكلّم في حياته شرطياً، غير أنّ بقية الكلام لم تعجبه وهذا يعني أنّه لن تكون له سكرتيرة بعيدة مهوى النهدين، ولا محرّرة قريبة مهوى الإبطين، لذلك ركبته كبرياؤه المعتادة، وقرّر متابعة الصوم عن الكلام إلى أبدِ الآبدين.

• عندما مرّت عدة أيام لم يسمع فيها رئيس تحرير الصحيفة المحلية الوحيدة الصرخة المعهودة (فلا نامت أعين الجبناء) تساءل عن السبب فجاءته الأخبار، بأنّ الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد، واقع في الأسر في مخفر شرطة باب الخيزران.

• وعندما تردّد اسمُ مخفر باب الخيزران شهق المحرّرون والمحرّرات من الدهشة والانفعال، وقالوا هل يعقل أن يحتجز أحد ألمع المحررين بسبب وشايات النساء.. ثمّ تعالى الهمس واللمز، ولم يعد بمقدور أحد أن يفهم حرفاً مما يدور غير أنّ مالك الحزين تدخّل وحاول قطع دابر الشك والأقاويل وطالب بتشكيل وفد إعلامي معتبر، لدراسة أحوال الموقوفين

في غرف الحجز في مخافر الشرطة، وقد جوبهت فكرته بالتنصّل و الانسحاب، وعندما وجد أنّه لن يظلّ أحد سواه في الوفد، سحب اقتراحه، وطالب بتشكيل لجنة لتفقّد الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد، وهكذا تراجع الجميع إلى مواقعهم وبدؤوا بلم التبرعات وتسجيل الأسماء وكان في طليعة المبادرين رئيس التحرير.

• عندما وصل الوفد الإعلامي الكبير إلى المخفر وأعطي الأذن بمقابلة رئيس المخفر، تمّ استقباله بحذرٍ وتهيّب، وقام رئيس المخفر مشكوراً بتقديم الكؤوس المملوءة بمستحلب شراب اللوز والكاتو بعد مصادرتها من دكان (كِزَّة) المجاور فشرب أعضاء الوفد وتلمظّوا، وكادوا أن ينسوا زميلهم الموقوف من شدّة التلذّذ والهيام، وتجرّأ المحرّر الشاب زكريا وطلب قطعةً ثانية من الكاتو ليأخذها إلى أمّه وقد وجدها رئيس المخفر فرصةً لمعاودة التوزيع، فاستقبل الجميع قطع الكاتو بشهيّةٍ وامتنان، وأعادوا بعد ذلك الأسئلة المحرجة التي تعبوا في تحضيرها إلى أعبابهم ومصنّفاتهم، ولسان حالهم يقول: كثرة الكاتو.. تغلب الشجاعة.

• بعد توزيع المناديل الورقية لإزالة آثار الكاتو.. بدأ أعضاء الوفد بالتمسيح والتبجيل وصرّح رئيس التحرير بأن شعار الشرطة في خدمة الشعب لم يتحقّق في حياته مثلما تحقّق الآن في ربوع هذا الاجتماع.

وطالب مالك الحزين بضرورة التشدّد مع بائعي الكاتو، وشراب اللوز. وتأمين حصّة يومية للموقوفين ليسود الأمن وتسود الشرطة، وتتضاءل أزمة الخبز، وتندثر، بعد أن يتحول الناس إلى الكاتو وشراب اللوز. وذكّر الحاضرين بالأسرة الحاكمة في فرنسا قبل الثورة الفرنسية، وكيف نظرت الملكة للكاتو نظرةً موضوعية ساهمت في تسريع احتلال الباستيل. وكان رئيس المخفر فرحاً ومتجاوباً وهو يصغي للأقوال، ويردّها إلى مصادرها فلا تعينه ثقافته النسائية في الوصول إلى موقف حاسم. لذلك طالب الخطباء الكرام بالاختصار، وتحديد مطالبهم بطلب واحد.

بعد ذلك.. قال رئيس التحرير بأدب جم وتواضع:

- نريد مشاهدة صديقنا المحرر النازل في ضيافتكم لنحدثه عن معجزات الكاتو.. وتبدلات الضمير.

• بعد هذه المقدمة نهض رئيس المخفر وقد انبسطت أساريره، واقتاد الوفد إلى قاووش الحجز لمشاهدة الصديق الموقوف وقد فوجئ الجميع بعد الدخول بأن الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد

في حالة غيبوبة تامة، ويتحرك محجرا عينيه في فراغٍ لزج ومستطير. عند ذلك شهق الجميع وكادوا أن يخرجوا من

أجوافهم قوالب من الكاتو.. وسواقي رائقة من العصير.. وكان الوضع محرجاً، لذلك اضطر رئيس المخفر للعودة إلى الهاتف والطلب من مديرية الصحة إرسال الطبيب المناوب لديها للكشف عن حالة طارئة ومستعجلة. ولا داعي للاضطراب.. قال رئيس المخفر مؤكداً وإذا تعذر معكم إيقاظ المريض بالوسائل السلمية والطبية، عند ذلك قد نلجأ للحلول المحيلة ونستعمل من أجل إيقاظه الماء والخراطيم.

• وقد شعر المحررون الأشاوس وهم متكومون على صفرة زميلهم وغيبوبته أنهم باعوه.. بلقيمات وجرعات من الشراب معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين.

• حين حضر الطبيب المناوب من مديرية الصحة. وعاين الجسد المسجى والغيبوبة الدافقة.. سأل:

- هل كان يتناول وجباته بصورة منتظمة. وقد استغرب رئيس المخفر هذا السؤال الذي يفتقر إلى اللياقة. فقال:

- وهل يحتاج الموقوف إلى وجبات. وقد هدر الحقوق والواجبات.

- هذا يعني أنكم كنتم تمنعون عنه الطعام.

- أبداً.. أبداً.. نحن لم نصدر قراراً صريحاً بالمنع، لذلك أساء الموقوف الفهم وأضرب عن الكلام.

- هل كان الموقوف مضرباً عن الكلام سأل الطبيب بارتياب.

- طبعاً وعن سابق إصرار وترصد.

- ذلك هو السبب.

- أي سبب يا دكتور. لم أفهم (سأل رئيس المخفر).

- صفرة الموقوف وغيبوبته مختلفة عن صفرة المضربين عن الطعام، وهذا يدل على أن السبب الرئيسَ للغيبوبة هو الإضراب عن الكلام.

- وهل يصاب المضربون عن الكلام بالغيبوبة أيضاً؟

- غيبوبتهم أشد فتكاً وغموضاً ممن عداهم من المضربين.

- فما هو السبيل لإيقاظه،

- يجب أخذه إلى مستشفى الجامعة فهو بحاجة إلى أربعة أكياس من الدم على أقل تقدير.

• وهكذا وجد الوفد الضيف ورئيس المخفر أنفسهم في موقف جائر لا يحسدون عليه، وعندما اختتم الطبيب المناوب كلامه ركض الجميع خارج المخفر. ورؤوسهم ممدودة إلى الأمام بحثاً عن هواءٍ قريب. وحدها عاتكة ظلت في غرفة الحجز، ثم انحنت بجسدها على جسد المحرر الطويل

واحتضنته، ثم كشفت عن مفاتنها وقربت نفسها وجنسها إليه.. لتوقظ احتمالات العيش فيه غير أن الجسد كان بعيداً، لذا أحست عاتكة نحو صفرته وغيبوبته بالهيام الشديد وبعد تحديق طويل.

• قالت جملتها الهائلة. بعض الناس تغرينا غيبوبتهم أكثر من يقظتهم، لذلك نحبهم ونفعل من أجلهم المستحيل. وبينما هي كذلك. دخل رئيس المخفر وشاهد ورأى، ثم صرخ في عاتكة:

يكفي يا آنسة، لقد ذهبت بعيداً، وأخاف أن يموت الموقوف بسبب الإثارة والجوع الشديد لذلك خرجت عاتكة حزينة ومهدورة، وقعدت على الدرج الفاصل بين المخفر والسوق، ووضعت رأسها بين كفيها وانخرطت بالبكاء العميق.

❖ ❖ ❖

في اليوم التالي خرج العدد الجديد من الجريدة، وفيه مقالٌ مستفيض عن احتجاز الزميل محمد عبد الواحد، وغيبوبته، وفي المقال شكر صريح لإدارة السجن، ومظاهر الحفاوة التي قوبل بها الوفد الإعلامي الكبير ثمّ تناول كاتب المقال باستفاضة، نوعية الكؤوس التي سكب فيها مستحلب اللوز وكيفية إعداد هذا المستحلب اللذيذ مع ذكر المقادير ونصح كاتب المقال، ربات البيوت بضرورة تعميم هذه

الطريقة في الضيافة. في الأفراح و الأتراح، وفي أيام اليقظة والغيبوبة، وعندما ذُكرت الغيبوبة، تحدث كاتب المقال عن الزميل المحرّر محمد عبد الواحد وغيبوبته التي لا يد فيها لرئيس المخفر ولا قدم وأن أسباب الغيبوبة واضحة وهي عندما اتخذ الزميل موقفاً جائراً بحقّ نفسه وموهبته، عندما قرّر الإضراب عن الكلام. ثمّ تابع كاتب المقال فقال:

والإضراب عن الكلام يا سادة يا كرام لا طعم لهُ ولا رائحة، أمّا من جهة اللون، فإنّ المضرب عن الكلام يصاب بصفرةٍ غامضة، ما تلبث أن تعبث بالدم والكريات، فيترك المضربُ اليقظة ويدخل في الغيبوبة والنوم العميق. غير أنّ إدارة السجن تعيش يقظة تامّة وتتابع المصابين متابعة تشيب لهولها الولدان.. أمّا من جهتي أنا.. فأنا أحبّذُ القيام بزيارةٍ مجاملة لرئيس مخفر باب الخيزران حتى نزيل سوء الفهم.. والكدمات عن بقية الموقوفين.. وبسبب الكدمات. أخشى يا ولدي أن يكون عمك السقّا.. مات.

ثمّ ذيل المقال بالحرف (س) وقد حار القرّاء في معرفة اسم الكاتب وتبعهم في الحيرة رؤساء المخافر..

.. أمّا القرّاء، فقد بدأت ظنونهم تؤتي أكلها وأخذت شكوكهم تدور حول ثلاثة رجال ينحصر في أحدهم كتابة المقال، والرجال الثلاثة هم، رئيس التحرير (عابد الرصيف)

ونائبهُ للشؤون المختلفة (مالك الحزين) والأستاذ رئيس مستودع الأرشيف (عبد الفتاح نور الصباح) ولم يخطر ببال أحدهم أن يكون المقال بقلم عاتكة وصدرها الهائم وحزنها العريق.

• أما رؤساء المخافر الأخرى، فقد نظروا إلى طريقة الحفاوة التي يقدمها رئيس مخفر باب الخيزران على أنّها طريقةٌ مثيرةٌ للارتياب، وما دامت كذلك فلا بدّ من تجربتها، وتطبيقها، لأن الريبة لا تزيلها سوى ريبة تضاهيها.

• وقد حصل الخلاف بين رؤساء المخافر في اختيار الطريقة التي سيتم فيها تقديم شراب اللوز والكاتو.. كضيافة للزوّار، وما هو نوع الزوار الواجب تكريمهم بهذه الطريقة، وخلال عملية البحث والتحليل، توجّه رؤساء المخافر إلى باعة الحلوى المجاورين، ودعوهم لزيارة المخفر الرئيسي في منطقة الصالحين، وهناك عقد اجتماع تم فيه الاتفاق على أسلوب التكريم وطريقته وتتلخّص الطريقة في إرسال عينات يومية من الحلويات يقوم كل حلواني بإرسالها إلى المخفر المجاور لدكانه، ويتبع ذلك دعوة وفود إعلامية محلية ومركزية لزيارة المخافر وتقديم الشراب والكاتو لها حتى تأخذ الوفود الإعلامية صورة مثلى عن تطور المخافر وصناعة الحلويات والمستحلبات في حلب أيام الأتابكه والمماليك والحمدانين.

• وعندما خرج باعة الحلويات من الاجتماع.. وأصبحوا خارج المخفر تلفتوا حولهم بانفعال ثم شعروا بالحلاوة والفرح العظيم.

❖ ❖ ❖

• أما الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد فقد نُقِلَ ممدّداً إلى مستشفى الجامعة بقصد نقل كميّات هائلة من الدم إلى شرايينه ورؤاه.

وقد أشرف على نقل الدم في المستشفى رجل يقال لهُ الرجل البنفسجي وقد ذاع اسم الرجل بسبب بشرته البنفسجية ولون جلده، وكان البنفسج أكثر وضوحاً في وجهه وكفّيه، وكان الرجل يطلق ومضات من البنفسج تعين الرجل الممدّد لتلقي العلاج. على الصحو والزرقة والاحتمال.

• وقد لعبت الصدفة دوراً بارزاً في الجمع بين رئيس تحرير الجريدة والممرض البنفسجي وقد حدث ذلك عندما قام رئيس التحرير بزيارة زميله محمد عبد الواحد في المستشفى فانتبه أول الأمر لهذا اللون البنفسجي المشع الذي يصدر من تقاطيع الممرض وعينيه، ثم كانت الطامة الكبرى، عندما عرف الممرض البنفسجي أن الزائر هو رئيس تحرير الصحيفة المحلية الوحيد، عند ذلك داهم الممرض رئيس التحرير، وعانقه عناقاً مهلكاً، ثمّ قدّم لهُ نفسه.

- أنا المرض نور الدين بن المنذر، ويلقبونني بالمرض البنفسجي وأنا أقرأ صحيفتكم الغراء من السيس إلى الترسيس. وأحفظ الإعلانات، وعدد الحفر والحاويات التي لا تسمحون سوى بالحديث عنها ويلفت انتباهي مقالكم اليومي الدامغ المملوء بالحجج والبراهين والأعذار، لقد استطعتم تحويل الخطاب السياسي الجاف إلى حقل مزروع بالتفاؤل والألغام.. يا الله هل أنا في حلم.. أم في غرفة الإنعاش.. لقد سبق لي وعملت في الصحافة في بيروت. الحقيقة أنتم مدرسة في الإعلام وفلسفته وشروط تبعيته. ويحقُّ لبيروت ومدارسها الإعلامية المختلفة أن تطرق خجلاً أمام تجربتكم وليونتكم ومجاملاتكم العذبة، وأنا شديد الامتنان منك ولك. وإذا سمحت لي بالالتقاء معك في مقرّ جريدتكم الغراء لأتبادل وإيّاكم الدم والهم وبعض الآراء.

• ثمّ انفضَّ اللقاء على خير، وتابع الرجل البنفسجي ملء أوردة المحرّر الطويل بالدم والموبقات.. وبعد أن انتهى من الكيس السابع ذهب إلى المغاسل وبدأ يعد نفسه للقاء المرتقب مع رئيس التحرير وكان الصابون ينطفئ على راحتيه، فيدفعه هذا الانطفاء والتفصّد لأن يتذكّر مارسيل بروست والزمن المفقود في مدينة بيروت ثم نظر إلى المرآة وقال:

في لقائي مع رئيس تحرير الصحيفة المحلية الوحيدة سأبسط تجربتي أمامه كاملة مع الصحف والمجلات العملاقة في بيروت، هذه الصحف التي عملت فيها محرّراً جوالاً لا يهدأ ولا يلين.

• حين غادر المغسلة كان اللون البنفسجي قد دخل في طور أعمدة الحكمة السبعة وصار قريباً من عمود البنفسج، ثم غادر موقعه وذهب إلى خزانته السرية وأخرج الأدوية والمراهم التي وصفها لهُ الأطباء الباكستانيون الذين يفتحون عياداتهم على الأرصفة وبدأ يدهن المواضع الحسّاسة من جسده، حتى تتحرّك فيه الحكمة مثل عمود من نور.

❖ ❖ ❖

• وبسبب الدم الكثيف الذي تلقاه استعاد الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد، بعضاً من لونه وطوله، وقيافته، لكنّه لم يتمكّن من استعادة منصبه كمسؤول عن تحرير صفحة الخميس الثقافي في الجريدة. وكان للأمر أسبابٌ عدّة:

• السبب الأول أن يوم الخميس، يوم غير ثقافي.. وفيه ينصرف الناس إلى التخلّص من أكاذيب وأدران أسبوع برمّته، ليحضِّروا ذواتهم ليوم الجمعة.. وبذلك تكتظّ الحمامات وصالونات الحلاقة بالمريدين والبشر التائبين، فيتراجع توزيع الجريدة واستهلاكها، وتلعب صفحة الثقافة دوراً كبيراً في هذا التراجع.

أمـا رئـيس التحريـر وبعـد أن دخـل الأسـتاذ محمـد عبـد الواحد.. مرحلة البراميل والشعار القاصم (ألا لا نامت أعين الجبناء) فقد تنازعته مشاعر الصداقة، وضـرورات المنصب والتحـرير، ولم يتمكّن من الوصول إلى حل.

غير أنهُ حين سمع بغيبوبة محمد عبد الواحد في قاووش مخفـر بـاب الخيـزران، تنفّس الصعداء وأمـر بضـرورة إعادة الإعلانـات إلـى صـفحة الثقافـة وخصوصاً إعلانـات المـراهم والمنظفات، وذلك لإعادة الثقة إلـى الصفحة وتشجيع القـرّاء الأعزاء على ممارسـة النظافـة والتطيب بـالمراهم لتخليصهم من أخطائهم وجفاوة زمانهم.. وعندما حصل ذلك، انتشرت البهجـة والموعظـة الحسنة علـى صفحات الجريـدة.. بعـد أن ابتعدت البراميل والشعارات على صفحة الخميس الثقافية.

• وعنـدما عاصـر رئيس التحريـر النتـائج الإيجابيـة التـي تحققت بسبب ابتعاد الأستاذ محمد عبد الواحد عن تحرير الصفحة الثقافية، تعزّزت هذه الفرصة بحصول اللقـاء الهام بين رئيس التحرير والرجل البنفسجي.

• وحـين وصـل الأسـتاذ نـور الـدين بـن المنـذر (الرجـل البنفسجي) إلـى مقـرّ الجريـدة بقصد زيـارة رئـيس التحريـر. اعترض حارس الجريدة طريقه وملامحه البنفسجية، قائلا:

- الدخول غير مسموح إلا إذا تمّ تحديد موعدٍ مسبق، عند ذلك أمسكه الرجل البنفسجي من عنقه ودفعه عن طريقه وعَبَر الممر بشكلٍ غير مرئي كما تعبر شخصيات الخيال العلمي.

وعندما وصل إلى بابٍ مكتوب عليه (رئيس التحرير) مدّ قبضتهُ وألقاها على قبضة الباب فاستسلمت.. وبلمحة صار أمام رئيس التحرير. وعندما التقاهُ بادره إلى العناق بذراعين مفتوحتين وحين انتهى من عناقه.. رجع ثلاث خطوات إلى الوراء ثمّ تأهّب.. وألقى خطابه الطويل.

• لم يكن نور الدين بن المنذر في طفولته ذا طبيعةٍ بنفسجية وجلد بنفسجي، لكنّها الأيام والتحولات، التي تعصف بالجلد وتعبث بالألوان. كان الصبي في طفولته ذا طبيعة شقراء، وكان يأتي لمساعدة والده المشرف على عمل (بوفيه) صحيفة الميزان في حلب، وكأن عمله ينحصر أول الأمر في نقل الطلبات إلى المكاتب والدكاكين المجاورة، وكان يقدم القهوة للأخوين (فريحة) اللذين عملا في سلك الصحافة الناشطة في حلب وقاما بنجاح بتأسيس وتمويل عدّة صحف ومجلّات، لكن الأمور تغيّرت وأعداد الصحف تراجعت لذلك قرّر الأخوان فريحة مغادرة حلب للبحث عن فسحة بديلة للعمل.

• وفي اليوم الموعود للسفر، قاما بشحن مسؤول البوفيه وابنه الوسيم مع المطابع واللوازم إلى بيروت، وبعد أن درسا المكان والزمان وحركة الصيد وهجرة الطيور والأسماك أسَّسا (دار الصياد) وحدّدا بنفسيهما موقع المطابع، ومكان البوفيه وبلفتةٍ ذكية من سعيد فريحة، أمر ببناء عمود قرب البوفيه حتى يستند عليه الصغير وقد تمكّن الصغير وخلال فترة مجاورته اليومية الطويلة للعمود من الانتباه إلى المواد الإعلامية التي تصدر عن المطبعة المجاورة وقرّر بينه وبين نفسه أن يكون له عمود خاص على صفحات إحدى المجلات في المستقبل.

• ثمّ تجرّأ وبدأ يدرّب نفسه على الكتابة، وقد أثارت بعض الكتابات انتباه الأخوين فريحة فقرّرا إرسالهُ للعمل مع الصحافة الأخرى لصالحهما وليتمكّن من نقل أخبار هذه الصحف وخططها لهما، وقد التزم بما رسماه لهُ.. فكتب الزوايا والتحقيقات، ونقل الأخبار والمؤامرات، وعندما انكشف أمره فصلاه من العمل المباشر وتعاقدا معهُ بصورةٍ غير مباشرة بصفة محرّر متنقل يبيع إنتاجه بالقطعة وقالا له يجب أن تعمل بصفة (صحفي حر) وتلك مهنة محترمة ورائجة في بلاد الغرب. وبسبب عدم تعوّده على الحرية وأسلوب العرض والطلب الذي تقتضيه تسمية (الصحفي الحر) ترك صحيفته وعمل مع المنظّمات السياسية المختلفة.

وظلّ على هذه الحال حتى اشتعلت الحرب الأهلية، وقد عاصر هذه الحرب وعمل مراسلاً متنقّلاً بين أقطابها وعندما أصبحت مشاهدته لجثث القتلى أكثر شيوعاً من مشاهدته لأجساد الأحياء تنبّه للمعضلة ودخل مرحلة العفّة والبكاء وتشييع الجثث إلى مثواها، وظلّ على هذه الحال، حتى بدأ الاجتياح الصهيوني لبيروت. في تلك الآونة عمل مراسلاً للقوى التي تعمل على مقاومة الاجتياح، وقد دفعه هذا العمل للتنقل بين الخنادق، وحمل الجرحى والدخول إلى المستشفيات، وفي إحدى المرّات وبينما كانت جماعة طبيّة تقوم بإسعاف المصابين.. نزلت قذيفة وأصابت شاباً وفتاة في المجموعة الطبية، وقد ساهم بكفاءة بنقل الفتاة إلى أقرب مركز، وعاد بعد قيامه بالعمل منتشياً من عظمة العمل الوطني.. وعذوبة جسد الفتاة، وعندما رجع إلى المجموعة الطبية المكلّفة بنقل الدم، نذر نفسهُ للعمل مع هذه المجموعة الطبيّة، وبدأ يشارك في عمليات نقل الدم وإيصال الأكياس إلى المستشفيات ومتابعة حال الصبية وظلّ على هذه الحال حتى توفيت الفتاة فحمل جسدها بين يديه وصعد بها إلى السماء.

وعندما عاد.. حدّث رفاقه في مجموعة نقل الدم عن أفعاله و رؤياه فازدادوا إعجاباً به وتقديراً وتابعوا أعمالهم

في نقل الدم إلى أن وصلوا إلى الحافة، ولم تعد في المقاتلين دماء تعينهم على الضغط على الزناد.. عند ذلك بدأ أفراد مجموعة نقل الدم بالتبرّع بدمائهم لتغطية جزء صغير من الحاجة الملّحة للدم. أول الأمر تردّد ولم يتبرّع، ولكنّه وقد شاهد انهماك أعضاء الفريق الطبي في التبرّع مدّ يده وأغمض عينيه وتذكّر جسد الفتاة التي حملها بين يديه كأن جسدها أيقظ فيه احتمالات الحياة.. وكان دمه يتفصّد وينزل بقوّة وكثافة و كأنّه في حالة تشبه لحظة النشوة الهائلة، ولكن العاملين في نقل الدم أحجموا وتردّدوا ونبهوه لخطورة الأمر، ولكنّه لم يتوقف وبدأ يطالب بإلحاح بصورة أدهشت الجميع بضرورة متابعة الاستيلاء على دمه وتخليصه منه.. عند ذلك لم يجد المرضون العاملون بُدّاً من ربطه وتكتيفه حتى يتوقّف عن سعار النشوة عندما يتفصّد منهُ الدم النبيل.

• حين وصلت أكياس دمه إلى المستشفى.. تحدّث العاملون في المخبر عن زمرة نادرة من الدم تستطيع أن تعطي كافة الزمر الدموية الأخرى ما يحتاجه أصحابها المصابون من لون وعافية وهيام، وعلى ذلك أرسل أطباء المخبر إلى المجموعة المكلّفة بنقل هذا النوع من الدم كتاباً يشرحون فيه خصائص هذا الدم ويطالبون منه بالمزيد.. والذي أدهش

المجموعة أن (نور الدين بن المنقذ) استيقظ صبيحة اليوم التالي وهو أكثر عافية واحتقاناً ثم قعد وحدّث زملاءه في البعثة الطبية عن الأحلام الجنسية المدهشة التي شاهدها في نومه. وعندما لمح زملاءه منه هذا المزاج الطيب والعافية المفرطة، أعلموه بمضمون كتاب أطباء التحليل في المستشفى، عند ذلك شعر نور الدين بن المنقذ بالأهمية والتقدير وطالب بإحضار فتاتين جميلتين ليتسنّى له التدفق وتوليد المشاعر والكريّات، وقد استجاب المستشفى، لهذا الطلب وأرسل ممرضتين لامعتين.. وعندما وصلتا أمسكت كلّ ممرضة بذراعٍ من ذراعيه، ثم أحضرتا إبرتين اثنتين، ورفعت كلّ ممرضة إبرتها وغرستها في وريد الساعد الذي يخصها.. ثم بدأ التدفق العظيم..

الممرّضتان تقطعان أوردة الأكياس وتعلقان الأكياس الجديدة الفارغة ثم ما تلبث أن ترفعاها، وقد امتلأت بالدم الفريد.. أيام مرّت على هذا الحال من التدفق. والدماء... ثمّ بدأت الأنظار تنتبه للتحوّل.. فقد بدأ نور الدين بن المنقذ يتحول من لونه السالف الذكر إلى اللون البنفسجي الساحر وقد أثار هذا التحوّل إحدى الفتاتين، فقرّرت أن تنذر نفسها له، وتبيت ليلتها إلى جواره حتى تلامس أطراف عزلته وتحولاته. فاغتبط بها وأخذها إلى جواره في السرير وفي

الليل تعالت الأهوال والشهقات وأنجز (ابن المنقذ) (من أفعال العناق والوثوب والمزوالة والمعاودة أفعالاً أطاحت بالسرير)....

وعندما نهض في الصباح لم تساعده قواه الخائرة على

مشاهدة الضوء فتعثّر بالباب.. ووقع على الأرض وغاب، وعندما انتبه أصدقاؤه إلى لونه.. أسعفوه بالإبر والمنشّطات، حتى تماثل لبعض اليقظة.. ثم تركوه وذهبوا إلى الفتاة التي نذرت نفسها له وعندما شاهدتهم الفتاة ابتسمت في وجوههم بعذوبة مفرطة.. ثم ودّعت الحياة، وقطرات من دمها تتسرّب من تحت السرير وتتحرّك خارج الأكياس.

• بعد هذا الحدث العابر.. جفّت دماء ابن المنذر عن آخرها وظلّ اللون البنفسجي والحزن مستوطنان فيهِ، وبعد مدّة من الزمان غادر جماعة نقل الدم متجهاً إلى بيروت وفي الطريق.. اعتقلته إحدى الميليشيات بعد أن انتبه عناصرها إلى لونه المريب.. وعندما أدخل الحجز وأخضع للاستجواب اعترف بما ارتكب وما لم يرتكب.. وعندما وصل إلى ذكر الفتاة التي نذرت نفسها من أجله.. اجتاحته الشهقات.. وكان ابن المنذر زاهداً عن نفسه، وعن الناس، وعندما وصله خبر الحكم عليه بالإعدام من قبل الميليشيات.. تنفس الصعداء و زايله القلق المقيم ثم تجرأ وسأل عن الطريقة التي سيتم بها

إعدامه، فقيل له، بأنه سيرسل إلى سفينة في عرض البحر.. وهناك سيفرم مع التبغ الرديء لإعطائه نكهة وطعماً ورائحة مميزة بسبب لونه البنفسجي الأخاذ.. وبعد أن يفرم ويلف ويوضع في علب، سيعاد تصديره إلى بلاده ليتم إشعاله وتدخينه هناك.. وقد أثار هذا الشرح شهيته ومخاوفه فطلب منهم الإذن بتدخين سيكارة.. فضحكوا ثم أعطوه سيكاراً غليظاً.. وعندما وضعه على طرف فمه.. رفع واحد من الميليشيات ولاعته وأشعل له مقدمة السيكار.. فتصاعدت منه سحب الدخان الكثيف وحجبت عنه وجوه أفراد الميليشيا.. عندها تابع التدخين بتلذذ في محاولة منه لنسيان المصير.

بعد أيام أحضروه، وأخبروه أنهم سيقومون بترحيله إلى عرض البحر، صباح اليوم التالي.. وفي ليلته الأخيرة قامت إحدى الميليشيات باجتياح مناطق نفوذ الميليشيا الأخرى التي وقع في أسرها، وقد تمكنت الميليشيا المهاجمة من اكتساح مواقع وتحصينات كثيرة حتى وقع موضع حجز الرجل البنفسجي تحت سيطرة الميليشيا الجديدة، وعندما أحضروه إلى القائد الجديد وتم استجوابه، دهش كثيراً عندما تعرفوا عليه، وقال له رئيس الميليشيا الجديدة.. ومن منا لا يعرف الرجل البنفسجي، ثم مد زعيم الميليشيا ذراعه بعد أن

كشفها وقال: دماؤك تجري في أوردتنا.. ثم حملوه وخرجوا به وهم يهتفون هتافات غامضة، وبعد دورتين أو ثلاث دورات في أرجاء المعسكر أنزلوه ثم بدؤوا احتفالهم الصاخب الذي استمر حتى الصباح. وقد تخللت الحفل فقرات باذخة من إراقة الشتائم والويسكي وإطلاق الرصاص.

في صبيحة اليوم التالي، أنزلوه إلى التدريب وطلبوا منه الإمساك برشاش واقتحام حشود ودشم الميليشيات الأخرى لهدر دماء الخصوم. لكنه بكى أمامهم، ومد ذراعيه في هيئة كائن خارج من بطن الحوت.. وقال: لم تعد في عروقي قطرة واحدة من الدم، لذا أطلب منكم إطلاق سراحي لأنني أرغب في الذهاب إلى بيروت لأسترد العمود الذي أكتبه فنظروا إلى وجهه شذراً وأداروا ظهورهم إليه. وقرروا نسيانه، وظلوا على ذلك حتى غاب عن نفسه وألوانه. وعندما بزغت شمس اليوم التالي، تحسس نفسه حتى تذكرها وتحسس جسده حتى رآه.. عندها نهض ويمم وجهه إلى بيروت.. وفي الحصار كانت بيروت أغرب ما تكون وأكثر فتنة وغباراً بسبب كثافة القذائف والصحف اليومية والأسبوعية، وحين اقترب من أحد الأكشاك احتضن كومة من الصحف وظل على هذه الحال، حتى استعاد لونه البنفسجي والقليل من الذكريات.

• حين دخل على رؤساء تحرير الصحف أدهشهم بلونه، وعمق نظراته، وحين ذكرهم باسمه وتاريخه تذكروه، ونهضوا للحفاوة به وتقديم التنازلات.. وكان من نتيجة ذلك أن ارتبط بعقود مع عدة صحف كبرى، وكلف نفسه بالتغطية الثقافية للكثير من المطبوعات والأعلام. ثم وضع مشروعاً لكتابة مقالات يتناول فيها كبار الكتاب والأدباء والمفكرين، وكان يوقع بأسمائهم وليس باسمه الشخصي وظل على هذه الحال من الكتابة حتى شاعت أسماء الكتاب الذين تناولهم وأصبح لأسمائهم صيت وهيبة، وكان من هؤلاء الأدباء الذين كتب عنهم مقالات بالنيابة (نزار قباني - أدونيس - أبو العلاء المعري - المقريزي - ابن نباتة الخطيب - مارسيل بروست - ستاندال) وبذلك شاعت شهرتهم على حسابه، وحساب راتبه الشهري ... وحين تدخلت بعض الميليشيات وقامت بتفجير مقرات بعض الصحف التي يكتب فيها، طلب منه رؤساء تحرير هذه الصحف التواري عن الأنظار فعاد إلى حلب وقصده أن يدخل في أسرة تحرير صحيفتها المحلية الوحيدة، لكنه وجد الطريق مسدوداً، ووجد المحررين الأساسيين، متمترسين، فشعر بالغضاضة والضغينة، وأحس بفساد دمه. وأصابته الحكة التي لا تعين على المتابعة، لذلك قرر أن يعمل ممرضاً في أحد المستشفيات، وعندما عرفوا بتاريخه في نقل

الـدم تم فـرزه ليعمـل في مخبـر المستـشفى، وهنـاك جـاءت الفرصـة وحـصل التعـارف بينـه وبـين عبـد القـادر الحمـداني أولاً، ثم مـع محمـد عبـد الواحـد ثانيـاً ثم مـع الأسـتاذ (عابـد الرصيف) رئيس التحرير ثالثاً، لذلك عاودته الحكة والحنين، وقرر أن يطرح نفسه للعمـل رئيسـاً للـصفحة الثقافيـة عوضـاً عن المسؤول السابق الأستاذ محمـد عبـد الواحـد، الغـارق في غيبوبة لا تطالها مفاتيح الغيب والبراهين.

❖ ❖ ❖

• قال المحرر البنفسجي نور الدين بـن المنـذر. الـذي يتـابع شرح ظروفه وتاريخه أمام رئيس التحرير:

- إننـي لا ألتفـت للبراميـل إطلاقـاً، ولا أمنحهـا وزنـاً أو قيمـة كمـا فعـل المحـرر الـسالف الـذكر. ولا أعتبـر الـنفط ومشتقاته مـن المسؤولين عـن قيـام الحـرب، وقيـام الطوائـف والمليشيات، وقيام القيامة،

كما وأنه لا توجد علاقة للبراميل المملوءة بـالنفط بمـوت الفتاة الأولى التي ما زالت رؤوس أصـابعي محتقنـة بـذكريات احتضاني لجسدها العظيم.

• عند ذلك تأمله رئيس التحرير.. ثم سأله:

- وما هي خطتك لإدارة الصفحة الثقافية؟

- سأحرك الحياة الثقافية لتنهض من رقادها العميم. وسأطرح من المشكلات الثقافية والأدبية ما يؤجج الدماء، والجوارح، وسأسعى لاختلاق مصادمات بين أدباء المعارضة وأدباء القطاع العام،

حتى لا تعود لأحد حرمة، وديدني ويقيني أنني سأحرر الدماء من عقالها لتغرق الشارع الثقافي ومقهى القصر ومقهى الموعد في الحمأة والصراع.

• عند ذلك نظر إليه رئيس التحرير بدهشة وارتياب وأخرج ورقة وكتب عليها قراراً بتكليفه مشرفاً على الصفحة الثقافية بصورة مؤقتة، ريثما تصدر القرارات من العاصمة بالندب أو التفريغ.

- أما الندب فلدي منه الشيء الكثير.

قال البنفسجي مخاطباً رئيس التحرير.

- وأما التفريغ، فلا يمكن للكائن أن يكون ممتلئاً مع صحيفة محلية وحيدة، لذلك تستطيع تفريغي من كل شيء.. سوى من جلدي البنفسجي،

ثم استدار من موضعه وذهب إلى الباب وغاب.

• عندما وصل بن المنذر إلى بهو المحررين في الجريدة. سأل عن مكتب الأستاذ الطويل

محمد عبد الواحد. وعندما دخل المكتب. تأمل الطاولة الفارغة واستدار حولها وألقى بجسده على الكرسي. وأخذ

نفساً عميقاً، ثم رفع سماعة الهاتف وبدأ البحث عن أسماء المفكرين والأدباء الكبار. وكان في ذهنه اسمان لا ثالث لهما الاسم الأول الأديب الذائع الصيت (خزعل البرغلي) والأديب الثاني (مراد أبو الخانين) وقد وجد صعوبة في الاتصال بالثاني وتعريفه بنفسه ومهمته الجديدة بسبب سفر الأديب المفاجئ إلى مضارب (الغجر) في البوادي والآكام لاستلهام مادة جديدة لبرنامجه.. التلفزيوني الجديد.

ولأن المحرر البنفسجي كائن لا يركن للدعة والأحلام، فقد نهض من وقته وساعته ميمماً وجهه شطر البادية ليلتقي بالأديب التلفزيوني الكبير، وقد حملته قدماه إلى محطة السفريات فركب أول حافلة متجهة إلى البادية، وقد تمكن من الصعود بعد أن أفلح في إزاحة قطيع من الماعز والأغنام المتمترس بحزنٍ واندهاش في ممرات الحافلة، ولم يكن المحرر البنفسجي يعتقد أن الفتنة والسحر يمكن أن تكتنف مثل هذه الأجواء إلا عندما قعد دون انتباهٍ فوق حَمَلٍ صغير... فصاح الحمل الصغير صوتاً التفتت له أعناق الأمهات والآباء من الحيوانات والركاب فأحس البنفسجي بفظاعة ما ارتكب، فانحنى على الحمل المصاب، وحمله في هيئة اعتذار وتكفير، مما دفع الحمل لأن يلفظ أنفاسه بين يديه وهو يشعر بامتنان كبير، عندها دمعت عينا البنفسجي وتذكر أيام الميليشيات وجحيم الحرب الأهلية، والفتاة

الجميلة التي قضت نحبها بين يديه، وعندما شاهد البدو من ركاب الحافلة، دموع الرجل البنفسجي الغريب، نهضوا إليه معتذرين وأخذوا الحمل الميت من بين يديه وألقوا به من النافذة، عند ذلك أخرج البنفسجي مبلغاً من المال، وحاول دفعه كتعويض، لكن أحداً منهم لم يأخذ منه المبلغ، وقال له كبيرهم:

- ما دمت غير قادر على إعادته للحياة، فلست بقادر على دفع ثمنه.

• وقد ألهبت هذه الحكمة دم الرجل البنفسجي وأذنيه، وبدا يحس بحنان كبير نحو البرية والفراغ العظيم.

وهكذا تابعت الحافلة الطريق ببطء وأمامه دون أن تنهب الطريق أو ينهبها. وظل المحرر البنفسجي غائصاً في التأمل والغبار تراوده المشاعر المتضاربة، وكان الشيء الذي يمنعه من إلقاء نفسه من النافذة المنزوعة الزجاج أسوة بما حصل مع الحمل الصغير، إحساسه بأنه يشبه الصحفيين العظام الذين يعملون في الصحف الواسعة الانتشار.. هؤلاء المحرّرون الذين يذهبون إلى الحدث ولا يقعدون خلف طاولاتهم في انتظار وصوله مظللاً بالكلام. الزائد والوشايات... لذلك هزَّ رأسه موافقاً.

- نعم الذهاب إلى الحدث هو الشيء الوحيد الذي يمنعني من الانتحار.

• وعندما أوغلت الحافلة عميقاً في البيداء، التفت المحرر البنفسجي إلى واحد من الرجال

المسنين... وسأله عن مضارب الغجر التي يؤمها الكاتب المشهور (مراد أبو الخانين) فالتفتت إليه رؤوس الماعز والأغنام وشعرت بالغضب كأنما أثار الاسم فيها شعوراً بالبرد والارتياب... لذلك انتصب شعر الماعز كالإبر وتليفت من الغضب أصواف الأغنام، وبدأت العنزات والغنمات القريبات من النوافذ بإلقاء أجسادها في غبار الطريق بصورة غريبة، ثم تبعها البدو، وبقيت الحافلة فارغة إلا من المحرك، والسائق والمحرر البنفسجي.. الذي أوقعته الظاهرة في الحيرة والتقلصات.. ولم يكن قادراً على تحديد موقعه إلا عندما نهض إليه السائق وجره من عنقه وألقى به من الباب. وهكذا وقفا في العراء وحيدين هو والحافلة، وحولهما آفاق لا حد لرحابتها وتجهمها. وعندما تأمل نفسه ووحدته الشاسعة قرر متابعة الحدث كما يفعل الصحفيون العظام.

• ثم غادرت الحافلة ولحقها الغبار، وظل وحيداً في البرية.. لا بدو ولا خيام ولا أغنام

لذلك نظر إلى نفسه وضياع أمره ورفع كفيه إلى الأعالي وبدأ يردد نشيد الاستسقاء:

يا ذا العطا. يا ذا الوفـا

اسـق العطـاش تكـرمـا.

ثم تردد في روحه صوت صباح فخري وهو يتابع الغناء:

مولاي أجفاني جفاهن الكرى

والوجـد لاعجهُ بقلبـي خَيَّمـا

مولاي لي عمل ولكـن موجب

لعقوبتي.. فاحنن علي تكرُما

ولم يكد ينتزع نفسه من الإصغاء العميق، حتى جلجل صوت الرعد ثم تبعه هذا الخط الفاصل من الضوء، بعد احتدام روحين ضالتين، وبدأ المطر بالهطول.. فتغرقت روحه وثيابه، وارتسمت حواليه دائرة بنفسجية تثير العجب. ثم وبلمحة.. توقف المطر وسطع الضوء وشربت الأرض حتى غابت، وظلت على شاربي ابن المنقذ، قطرات من الماء الشفيف تحول بينه وبين الصراخ من الوحدة والظمأ وكان أن أزاح المطر الغبار من الجهات كافةً، وصار بمقدور الرجل الضال أن يرى ويعيش.. فالتفت إلى الجهات البعيدة حتى لمح ظلاً متحركاً مجللاً بالسواد فركض إلى جهته عله يعينه على الرشاد، وعندما وصل وجد الهول والجَمال. فتاة بالغة التفتح

والبريق.. محاطة بثلاث معزات ذهبيات، وعندما وصل إلى جوار الفتاة وقع بين قدميها وحوافر الماعز المجاورة لها وعندما لمحت الفتاة تشقق وَجْدِهِ وشفتيه، انحنت ولامست الشفتين الهائلتين، ثم قربت إليهما ضرع المعزة المجاورة، وبدأت تحلب الضرع، وبدأ الحليب يتدفق ويفيض، وظل بن المنذر يكرع ويستزيد. حتى تغيرت لهجته وجهة نظراته، وقبل أن يختنق من قوة وغزارة خيط الحليب، حوَّل رأسه عن الضرع فلمح وجه الفتاة وكفيها وهما تتابعان القبض والانبساط على الضرع القريب:

- إنني.. إنني..

كلمتان قالهما المحرر البنفسجي باضطراب وإعياء، ثم لم يتم.. بعدها دخل في الغيبوبة والانخطاف.

وعندما أحست به الفتاة وشعرت بتلاشيه، مزقت صدر ثوبها حزناً عليه فظهر نهداها.. وبدأت تندب فيه رجلاً.. لم يكد يظهر.. حتى اختطفته الأعاجيب. وكان للندب إيقاع.. وجذوة وانتشار وكان للنهدين سطوة وتصلب والتماع.

ليت الفتى خيمة ليت الفتى صخرة
لحملته في الروح وضمرته ضمرا
بالسر لست أبوح إن باحت الشعرا

يا صـــدري المفتــوح   انــزل لــه قطـــــره
أنـــزل لـــه ليعــود   من ضيــع الصَّبْــرا [*]

ثم بـدأت تقبض علـى مـسام الرمـل وجذواتـه، بالأصـابع والدموع وتذريه في الجهات.. حتى تنهض الأرض من رقادها وتلتفت إليها وإليه.. ثم تـشكلت قطـرة علـى نهدها، وتـشكلت قطرة أخرى على النهد الآخر ثم تكورت القطرتان وانـصهرتا ووقعتـا علـى الفـم المشدود للجـسد الغائـب. عنـدها انـشقت عينا ابن المنذر عن نظرتين مصفرتين وقال:

- أيـن أنـــا؟

لذلك نهضت الفتاة من بيدائها وبدأت بالزغاريد

وعندما تـأملها، ولحس شفتيه ليختـزن حـلاوة القطـرتين، لمح النهدين المتـأهبين فكـاد أن يقـع مغـشياً عليـه، فاضـطربت منـــه وســـترت نهـــديها عنـــه حتـــى لا يـــدخل بـــرزخ الغيـــاب والانخطاف من جديد، لذلك تحامل على نفسه وقال:

- من أنـت. كـأنني أعرفك.. لقـد حملـت أيـام الميليـشيات فتـاة مثلـك بـين ذراعـي وأصـعدتها إلـى الـسماء وربمـا لمحـت واحدة تشبهك في أحد المسلسلات.

فقالت الفتاة:

❖ المقطع الشعري للمؤلّف.

- ربما كنت وربما لا أكون.. غير أنني فتاة بدوية أنكرها أهلها من أجل حبيب من الحضر، ثم أنكرها حبيبها خوفاً من أهله في الخان، لذلك لا أرضاً قطعت ولا حبيباً ضممت، وعندما رجعت.. نفاني أهلي، وأعطوني ثلاث معزات لكل واحدة ضرعان. ولم يتذكروا نهداي ليدخلوهما في الحسبة والعدد لذلك أمنحهما لكل ضائع ومريد. فهل تحب أن تشرب وتستزيد ؟

- تمنحين نهديك لكل راغب.. حتى ولو كان بنفسجياً مثلي؟

- حتى ولو كان يشبه عفريت علاء الدين .

- كنت كذلك قبل أن .

- قبل ماذا .

- قبل أن أتذوق قطرتين من الحليب .

- فماذا أصبحت بعد أن تذوقت .

- كنت قبلهما أشبه العفريت في مصباح علاء الدين أما الآن فأنا أشبه علاء الدين.

- فما هي حاجتك في هذه البريه..

- حاجتي أنت وصبوتي، وما يقوض سعيي ويشتت يقظتي.

- وماذا بعد؟

- جئت باحثاً عن الكاتب المتبحر في حياة الغجر وتقلبات أيامهم وأغانيهم. لقد حاول أدباء آخرون ملامسة مواجدهم.. فأصعدوا الغجر إلى السماء أما أديبنا الراسخ فقد أنزلهم إلى المدينة والكباريهات حتى لتكاد الأرض أن تتأسى لما لا قوه من مصير.

- لقد فعلها معي وجعلني أحب أحد الممثلين، بعد ذلك ضعت وتشردت وتنقلت من حيرة إلى حيرة حتى التقيتك وكدت بسبب بكائي عليك أن أواريك. فهل تتركني وتتابع البحث؟

- لقد وجدت فيك ضالتي وضلالي.. ولو أنني عرفت أنك في آخر الأرض لذهبت قاصداً أرضك، ومصغياً لبرق واحد من نهدكِ.

• عندما عرفت الغجرية حاجة البنفسجي، نهضت ملتاعة وهشت بعصاها على عنزاتها

الثلاث.. فاضطربت أمامها ثمانية نهود.. وسبقنها إلى الحيرة والفراغ.

• وهكذا رجع بن المنذر إلى حلب.. دون أن تكتحل عيناه برؤية الأديب (مراد أبو الخانين) في البوادي والفلوات. وعندما التقاه في حلب.. سأله عن المضامين التي يزخر بها

أدبه فأجابه الأديب أبو الخانين بعد أن استدار إلى جهة تتعارض مع نظرات محدثه المحرر البنفسجي:

- إن صحيفتكم تُفَوِّر الدم وأسئلتكم تصيب الأدباء بالغباء فحاول أن تسألني أسئلة سهلة تفتح الأبواب أمامي ولا تقفلها.

عندما سمع المحرر البنفسجي كلام الرجل.. اضطربت ألوانه وقال له:

- سأترك تحت أنفك أسئلة أرجو أن تجهد نفسك في الرد عليها حتى لا ينكشف الغطاء.

ثم تركه ومضى إلى (خزعل البرغلي) وعندما اقترب منه حمل أسئلته وألقاها أمام الأديب المذكور.. ومضى إلى الطريق المحلق خارج المدينة، وغايته أن يملأ رئتيه ببعض الهواء، ليتمكن من استرداد البريق الذي منحته إياه قطرتا الحليب اللتينِ تسربتا إلى فمه من نهدي الغجرية. عندما اقتحم البادية وضلَّ الطريق.

حين وصل نور الدين بن المنقذ إلى الغروب والأشجار، رفع ذراعيه إلى السماء وصاح:

- لماذا يا رب؟

أليست الحرب أجدى وأقل مصروفاً من تحرير الصفحات الثقافية وطرح الأسئلة على بعض المثقفين.

• عندما وصل الأديبان إلى بيتهما وفي جعبة كل منهما أسئلة لا طاقة للحيتان بها.. قعد الأديب مراد أبو الخانين خلف جهاز الكمبيوتر الذي يكتب بواسطته تقاريره، ومشاهده التلفزيونية ثم حرك أصابعه وكتب السؤال الأول على الشاشة، وتابع بعد أن مسح زجاج نظارته وأطراف عينيه، ثم قرأ السؤال مثنى وثلاث ورباع. حتى كاد أن يقع من سوء الفهم والانفعال.

• كانت الأسئلة تطالب الأديبين بإعطاء كل منهما رأياً في أدب زميله الآخر.

ما رأيك في أدبه، أبطاله، المكان والزمان، فضاء النص ولماذا ينحاز الغجر والقرباط إلى أدبك، وينحاز اللصوص والمهربون إلى أدبه، وهل أنتما أديبان واقعيان أم أديبان رمزيان وإذا لم تكونا أتباعاً لهذا أو ذاك من المذاهب فمن تكونان؟ وإلى أي المذاهب الأدبية تنتميان؟ لذلك اضطر الأديب (مراد أبو الخانين) أن يعمل فكره وجهده ليتمكن من الوصول إلى أجوبة شافية.. يردُّ فيها على الأديب الآخر ويفنده. وعندما انتهى نهض متيبس الأطراف من الفصاحة والكبرياء وحمل الأجوبة ومضى إلى مقر الجريدة.

• أما الأديب (خزعل البرغلي) فقد حمل الأسئلة وذهب إلى منزله واستلقى ببطنه وطوله على الأرض ووضع رأسه

تحت السرير وبدأ قراءة الأسئلة ليتمكن من الإجابة عليها. وكانت هذه الطريقة في الاستلقاء التي ورثها من أيام الطفولة هي الطريقة الوحيدة التي تعينه على الفهم والتجاوب، لكن الأفكار عاندته واستعصت عليه هذه المرة، لذلك نهض من تحت السرير بعد أن لطم مؤخرة رأسه بعارضته الحديدية. وحين انتهى من الألم والتقلصات رفع كفيه إلى السماء التي يحجبها عنه سقف غرفته وصاح بضراعة وسواد:

- لماذا يا رب.. منحت بعض الأدباء نعمة الرد على أسئلة النقاد ورجالات الصحافة، وحلت بيني وبين ذلك، وها أنا أحمل أسئلة تزلزل جبلاً، وعقدة في اللسان تقوض فيلاً، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ وظل يكررها حتى شرب زجاجة من عرق التين. وبدأت المخيلة تعمل.. وبدأ الاستعداد للكتابة يجيء. وغادره التهيج والاحتقان وعاد إلى الأرض فتمدد عليها وإلى الفراغ الكائن تحت السرير فدس رأسه فيه، وبدأ كتابة الأجوبة، وظل على ذلك حتى أيقظه من غيبوبته جرس المدرسة وصراخ السيد المدير.

• عندما وصلت الأسئلة معمدة بالأجوبة والدماء قرأها المحرر البنفسجي. وضحك حتى كاد الكرسي أن يغدر به، ثم حمل الأسئلة والأجوبة ومضى بها إلى رئيس التحرير.

• في اليوم التالي.. كانت الصفحة الثقافية شيئاً لا يشبه

عـداها مـن الـصفحات وكـان القـراء الكـرام يقـرؤون وتغـزو وجـوههم التقلـصات وقـد انقـسم الـرأي العـام إلـى قـسمين، قسم يعتب على الأدبيين اللامعين وقسم آخر يلعن الـصحيفة التي سمحت بهذا النمط من الإبداع.

• وكانت الظاهرة اللافتة أن أعداد الجريدة قد بيعت عن آخرهـا ولـم يعـد ممكنـاً بيـع الأعـداد المرتجعـة لباعـة الصندويش، وهكذا لم يتمكن موظف الأرشيف بعد أن نفق العدد بهذه الصورة أن يحتفظ بعدد واحد ليكحل به عيون الأجيال القادمة من القراء والباحثين.

والملفت للنظر أيضاً هو توالي الردود من القراء والكتاب ومن مختلف المشارب والأعمار وبخاصة الردود التي دبجها أساتذة التاريخ، والتي تتصدى للرد على أخطاء الأديبَين اللامعين وهما يتصديان للربط والتوثيق، وذكر الأيام والأسماء والأعوام، وهكذا دخلت الجريدة في مرحلة مغايرة من الإثم والانتشار، وقد تقرر بعد دراسة هذه الظاهرة رفع عدد نسخ الجريدة بالحدود التي تسمح بها المطابع الهرمة والأخطاء وقد اضطر الأديبان لارتداء الألبسة الواقية حتى لا تتسرب إلى جلديهما لعنات وشتائم القراء الميامين.

وقد أدلت الأديبات الشابات بُدلائهن في المعركة الدائرة على صفحاتِ الجريدة في محاولةٍ منهن للدفاع عن دور المرأة

في الرواياتِ والمسلسلات التي يكتبها الأديبان على أقلِ تقدير.

• وكانَ رئيس التحرير معجباً بالظاهرة، ويمنحُ أصحابَ الردود الجائرة والردود المؤيدة مواضع هامة على الصفحات الداخلية قرب زاوية شكاوي المواطنين من الداخل وفوق زاوية الشرطة في خدمة الشعب من الخارج وبدا للجميع أن للصحافة دور كبير إذا أحسن استغلاله واللعب بمقدراته.

• خلال هذه الفترة.. كان المحرر الطويل محمد عبد الواحد.. يستيقظ من غيبوبته ليقرأ ما يكتب في الصفحة الثقافية ثم يعود لغيبوبة أعمق وأشد دوياً. وهو يلوح للناس ليتضامنوا ويوقفوا زحف البراميل التي كادت بسبب كثافتها وانتشارها أن تصل إلى باب الحيّات في القلعة، وعندما تصل البراميل إلى هذا الحد، تشعر الحيّتان المحفورتان على الباب الكبير بالحصار فتتحرك واحدة باتجاه السور وتتحرك الحيّةُ الأخرى باتجاه الخطيئة، وينفتح الباب الكبير على مصراعيه ليسمح للخطاة والاحتمالات الغامضة بالوصول إلى قمة القلعة ومواضع كبريائها وعفتها.

ثم قام المحرر الطويل (محمد عبد الواحد) بتمزيق الجريدة وإلقاء أجزائها أمام الناس وهو يقول: إنني أترك الأمانة وأمارة الجند في أيديكم.. لأذهب إلى الموت.. كما فعل ابن الوليد.

• وكان الوضع العام مؤهلاً للكثير من المنجزات، فلقد وصلت الأخبار التي تؤكد الانتهاء من بناء سور المدرسة وإعلاء شأنه، وعندما يتم بناء السور.. قال المهندس المختص: فلا بد وأن يتعظ هيكل المدرسة ويرتدع، ويتوقف عن التفكير في الانهيار.

• وعندما يرتفع السور.. قال مدير التعليم: فلا بد من العودة للعزل، ولابد من إعادة البنات إلى الزمان القابع خلف السور.

• وعندما تعود بناتنا لمدرستهن قالت إحدى الأمهات: ويصبح لهن طريق مختلف في الذهاب والإياب عن طريق الصبيان، فلا بد عندها من الخروج إلى الشرفات لإطلاق الهناهين والزغاريد وما توزعه الحكومة من شعارات وأناشيد.

• غير أن واحدة من الأمهات صاحت: وكيف نستطيع الوصول إلى الشرفات بعد أن امتلأت بالبراميل.. عندها.. دمعت عينا إحدى الأمهات وهي تتذكر الزمن البعيد، ثم رفعت زنديها المتروسين بالخواتم والأساور، ودعت من كل قلبها على منظمة أوبك وأصحاب الكازيات.. فلولاهم لما قامت الحرب.. ولما تكاثر عدد البنات بهذه الصورة التي تدعو للحذر وإغلاق النوافذ والأبواب بالمتاريس.

ثم صرخت امرأة أخرى: إذا ظلت الأمور على هذه الحال فسيغلق الرجال الشرفات وسننسى طعم الهواء ولون السماء.

• وفي اليوم الموعود، أقيم احتفال في مدرسة (الوحدة) التي استضافت طالبات مدرسة البنات، تحدث فيها مسؤول المنطقة التربوية عن المناسبة الغالية التي تم فيها إنجاز السور، ودعا البنات والشبان لنسيان المرحلة السابقة، والعودة بتفاؤل وامتنان إلى العزل والفصل فهما سمة هذا الزمان.

• وعندما جاء دور مديرة مدرسة البنات (مروة الداخل) تقدمت. وأبعدت المكبِّر من أمامها ثم حيَّت بصوت يهدر كالرعد جميع المسؤولين والبنائين، وعمال قطع الحجارة والمتفجرات في جبل الشيخ سعيد. ثم تنهدت وصاحت: إنها فترة من السبي اضطررنا لها وعشناها، ولو لم نكن نتمتع بالحكمة والمحافظة وطول الثياب لوقعنا طرائد سهلة بين ذراعي مدير مدرسة الصبيان.. الذي تسوِّل له نفسه كل يوم أن يدخل إلى إدارتنا ويبذل الغالي والنفيس لشرب قهوتنا والكشف عن أفكارنا وبرامجنا ليتسنى له نسج الخيوط والإيقاع بواحدة منا.. لذلك ينبغي توسيع العزل، ليشمل الأحياء والأموات في المدارس والمقابر والشرفات.

• ثم جاء دور مدير مدرسة الصبيان.. فاقترب من المنبر

محاذراً من الاحتكاك بالمديرة الغاضبة، ثم أعاد المكبِّر إلى مكانه وبدأ بصوت خجول الكلام فقال:

- ليس بوسع أي سور أن يتصدى للحياة.. لقد ظهر على وجوه الطلاب والطالبات التفتح وأصبحوا أكثر استعداداً للدوام والتفوق، رغم أن العزل قائم، واللقاء الذي يحصل لم يكن يتجاوز برهة الخروج والدخول من البوابة.. لقد أردت الاحتكاك بالإدارة المجاورة ليتسنى لي إيقاف الانهيار الذي يحصل داخل روحي وأمام عيني.. وعندما يكون السور هو الملاذ عند ذلك يختلف التأويل وتضطرب الرؤيا والحاجات.

• لقد كان لي في بداية الانهيار حلم أو بعض حلم، أما وقد نهض السور ثانية فها أنا أعلن.. بأنني لا أمتلك سوى اللعنات والأيام التي لا تنفع أحداً ثم استدار وعاد وتهالك على كرسي بعيد.

• في تلك اللحظة، تبللت عينا مديرة المدرسة السابقة (مروة الداخل) وحين لمحتها معلمة الأخلاق الحميدة على هذه الحال سألتها عن السبب فقالت المديرة بعد أن مسحت الماء الذي اجتاح وجهها:

- لم أكن أعتقد بأننا يمكن أن نكون على هذا القدر من اللؤم والضلال، لقد بدا لي مدير مدرسة الصبيان الآن مثل أب عظيم.. أساء أولاده الفهم وأطلقوا عليه وعلى أنفسهم

التهم والأحكام.. يبدو أن زماننا بطيء الفهم وعندما تأتينا الفكرة، نكون قد طوحنا بأعز الناس والأيام.

- بعد نهاية الحفل الخطابي.. انتقلت الحشود، ومشت البنات في طابور طويل وحزين، وقربهم مشى الصبيان في طابور طويل وحزين. ولم يكن بوسع أحد في الطابور أن يفعل سوى إلقاء النظرات.

وكان المدرسون، والمدرسات والمديرون والمديرات، والمحررون والمحررات يفصلون بين الطابورين ويمنعون النظرات واللفتات من الوصول إلى أصحابها، ثم تابعت المسيرة طريقها حتى وصلت إلى مدرسة أبي عبيدة بن الجراح الإعدادية.. حيث يقام الاحتفال المركزي، وهناك رفعت الأعلام واللافتات، وصدحت الأغاني والتعليمات،.. بوجوب الانتباه والحذر والالتزام بثقافة الطابور وسياسته، حتى يمر الاحتفال على خير، ويتمكن المسؤول من قص الشريط الحريري.. وإزاحة الستار عن اللوح التذكاري وإعطاء الإذن بالبدء في الدوام.

ثم اقتربت الفرقة الموسيقية وبدأ أفرادها النفخ والقرع والتلويح.. وكان للأصوات العالية حضور حاسم وسلطة هائلة أفلحت في نقل اهتمام الصبيان والبنات إلى نقطة المنصة، حيث يقف الرجل المسؤول. وإلى جواره تقف الهيئات

والإدارات والمراسيم. وحين انتهت الفرقة من عزف الأغاني الحماسية والمقطوعات، تحرك الحشد إلى نقطة قريبة من السور، ثم تحركت الفرقة الموسيقية وهي تعزف ألحاناً مرافقة تعين على ضبط الحركة ووحدة الإيقاع، وحين وصل المسؤول الحكومي إلى الشريط الحريري تقدمت إحدى الفتيات ومعها طبق صيني وعليه منديل مخرم الجوانب، وفوق المنديل مقص وقرب المقص وردة، وعندما اقترب المسؤول. مد يده وحمل المقص واقترب من الشريط الأحمر وقام بمحاولة قصه، غير أن المحاولة لم تنجح واستعصى القص على المسؤول والمقص، فحاول ثانية وحرك كفه وأصابعه بقوة، فتحرك طرفا المقص، لكنهما لم يقصا، عند ذلك تحركت الأوامر والهمسات، بضرورة إحضار مقص آخر، دون أن يتجرأ أحد بالمطالبة بمسؤول جديد، وما هي إلا برهة حتى حضر المقص الجديد الآخر، فحمله المسؤول ثانية، وبذل جهداً كبيراً في محاولة قص الشريط لكن المحاولة خابت، وظل الشريط على حاله وكماله، في هذه اللحظة تقدم رجلان وقبضا على طرفي الشريط، وقدم أحدهما للمسؤول سكيناً حاداً وطلب منه أن يشق الشريط شقاً وعندما فعل وغرس رأس السكين وسط الشريط.. تجاوب الشريط، وتصاعدت صرخة، ثم نهض من وسط

الحشد رجل طويل.. وصاح:

لم يعد أحد يحتمل أحداً حتى الأحجار

والسور سينهار

والبناء سينهار

ثم تراجع الرجل.. وظل يتراجع حتى لم يعد أحد قادراً على إدراكه.. لذلك تابع الرجل المسؤول معالجة الشريط بانفعال، وعندما أفلح في قص الشريط تصاعدت صرخات الفرح والإعجاب، وبدأت الموسيقا.. وسرعان ما خرجت الأمور عن السيطرة فاختلط طابور البنات بالبنين، وحصل الالتحام الكبير، وكان طرفا الشريط تحت الأقدام وقد وجدتها مديرة مدرسة البنات (مروة الداخل) فرصة ملائمة فركضت إلى مدير مدرسة الصبيان واحتضنته في محاولة منها للتكفير عن ذنب كبير اقترفته.

• وكان المشهد عاصفاً وغريباً لذلك تدخلت المليشيات للفصل بين الأجساد والمودّات.

وكان المحررون واقفون يتأملون، وقد حاولت عاتكة أن تلتصق بمالك الحزين في محاولة لطلب الحماية والعزاء، فاحتضن جسدها اللدن.. بذراعه وقرَّبَها من عينيه وزمانه.

• في مقر الصحيفة. جلس مالك الحزين في مكتبه

وكانت سكرتيرة المدير أمامه ترمقه، فأخرج ورقة بيضاء وقلماً وبدأ الكتابة عن الاحتفال، وعندما تذكر ظاهرة قص الشريط، وصرخات الرجل الطويل.. ارتعشت يده في الكتابة وبدأ بالمبالغة والاضطراب، ثم أكد في آخر المقال، أن المسؤول

الحكومي حين قطع الشريط الحريري بالسكين بدأ طرفا الشريط بالنزيف.

- وفي المقال الذي كتبته عاتكة.. توقفت عند العناق الأخير الذي حصل بين مروة الداخل مديرة مدرسة البنات وعاطف السيد مدير مدرسة الصبيان وأكدت بأنه ذروة في القداسة والوفاء.

- المحرر البنفسجي نور الدين بن المنذر، درس الظاهرة من وجهة نظر ثقافية فقال: أما أنا فلم تحاول أي امرأة أو فتاة التقرب مني لذلك بدأت أتساءل، مَنْ مِنَ الناس يقف أمام السور، ومن منهم يقف خلفه، ولو أن ابنتي كانت مع الحشد لصرخت صوتاً أعتى وأطول من صراخ الرجل الطويل لأمنعها من الحركة. وأمنعها من الحضور..

- أما الأستاذ الطويل محمد عبد الواحد، فلم يلمحه أحد، في المشفى أو في البيت أو الجريدة.

- عندما اطّلع رئيس التحرير على المقالات المكتوبة أمامه والمكرسة لتدشين السور ووضعه في الخدمة.. رفض قبول

مقالة مالك الحزين، ومقالة عاتكة ووافق على مقالة المحرر البنفسجي لأنها لا تخوض في التفاصيل.

• حين رجعت البنات والصبيان إلى البيوت، بدت عليهم ملامح السبي كأنهم عائدون إلى الدم والشتات.

• عندما دخلت عاتكة إلى بيتها كانت منفعلة.. ورغم أنها لم تلمح الكلب.. لكنها أحست بعينيه تلاحقانها.. لذلك تعثرت بإفريز الباب وعلق كعبها.. فطارت ووقعت.

• بعدها نهضت مرتدية فردة حذاء واحدة وبدأت مثل راقصات الباليه تتحرك في الفراغ..

وعندما انتبهت إلى نفسها.. خلعت فردة الحذاء وألقت بها وتجولت حافية.. بعد قليل من الحركة شعرت بالجوع فذهبت للمطبخ لإعداد الطعام.. وبينما كانت ترتب الصحون.. خيل إليها أن أحداً يطرق عليها الباب.

ليت أحداً يطرق عليها الباب.

ليت أحداً.. ثم وقعت عيناها على فردة الحذاء المكسور. فتذكرت سندريلا. لو أن لها أختان شريرتان تعيشان معها، وزوجة أب ظالمة تخلط الرز والعدس في المساء ثم تطلب منها أن تفصل بينهما حتى الصباح لكانت أكثر بهجة وأقل إحساسا بالوحدة مما هي عليه الآن.

ليت الجدار ينفتح وتدخل الساحرة الطيبة ثم وبلمحة ترتدي عاتكة أجمل الثياب لتذهب إلى حفلة الأمير.. وعندما تلمح الساحرة حذاءها المكسور، تحضر لها الحذاء الذهبي المسحور، وعندما تفتح عاتكة عينيها، تتساءل ليست لي أختان شريرتان، ولا زوجة أب ظالمة لذلك لا يستطيع أي أمير الانتظار.

● حين وصلت عاتكة إلى مبنى الجريدة، ودخلت على مالك الحزين في مكتبه.. لم تكن السكرتيرة امتثال موجودة. عند ذلك أخبرت مالك الحزين برؤياها ووحدتها وكعب حذائها المكسور، وابتعاد الأمراء عن عالمها.

- ألم تشاهدي الكلب؟.
- لا أعرف.. لم أكن منتبهة.
- يجب الانتباه في مثل هذه الأحوال.
- لماذا؟.
- ربما كان الكلب أميراً مسحوراً.. أتعبه الانتظار.
- هل يمكن لمثل هذا أن يكون؟.
- يمكن.. لقد تحول الكلب في أماكن أخرى إلى صحيفة (*).

❖ أصدر الأديب إسماعيل جريدة اسمها (الكلب) في الستينات في دمشق وكانت على غاية من الجدة والطرافة الاكتئاب وكان يحرّرها بنفسه ويكتبها بخط يده.

- فماذا تقترح علي؟

- أقترح أن ندخن ونشرب القهوة معاً. ونتابع العمل.. حتى لا يتهمنا أحد بالتقصير.

• ثم أشارت عاتكة إلى ثيابها وقالت:

- أنا دائماً أقصر، فهل يمكن اعتباري من جملة المقصرين.

• عند هذه النقطة من الحوار والضحكات وشرب القهوة والتدخين دخلت الآنسة امتثال سكرتيرة رئيس التحرير فارتطمت كف مالك الحزين بفنجان القهوة.. وانسكب السائل على ثياب عاتكة. فاضطرب المشهد.. وانطلق الجميع فرحين إلى الماء. وعندما عادوا... وصلتهم الأخبار... وبأن مبنى مدرسة البنات اضطرب ومال... ولم تعد البنية التحتية قادرة على الاحتمال.

• وعندما تضطرب البنية التحتية، فلا بد وأن يحسَّ الراسخون في العلم، بزلزلة خفيفة لم تقدر أجهزة الرصد والنبوءات على التقاطها وكشف أهدافها، وخلال هذه الزلزلة، اضطربت المدرسة وانهار السور الجديد. وكانت دهشة الجميع أكثر اتساعاً من الشقوق. وهم يتأملون الانهيار وأبعاده، وعندما حاول أحد المندهشين أن يذكِّر الحاضرين، بالرجل الطويل وصرخته الداوية، في الاحتفال حيث قال:

ما عاد أحد يحتمل آحداً حتى الأحجار

والسور سينهار... البناء سينهار

وبأن الصرخة يمكن أن تكون سبباً للانهيار. تعالت الصرخات واختلطت النبوءات. وعندما لاحظ المختصون هذا الخلاف البيِّن في تحديد أسباب الانهيار وظروفه.. تقدم رئيس تحرير الصحيفة المحلية الوحيدة باقتراح إلى الجهات المعنية يطالب فيه بعقد ندوة تضم أصحاب الخبرة والاختصاص، يتم فيها بحث ظاهرة الانهيار من كافة الجوانب والسطوح.. وقد استجيب لهذا الرأي وتم عقد هذه الندوة في صالة الذباب في مقر الجريدة.

وفي اليوم الموعود، حضر المعنيون والمهتمون، والشامتون والمستغربون والحزانى، وأولياء الأمور.

ثم بدأ رئيس تحرير الصحيفة بالترحيب بالحاضرين وبعد كأسين من الماء ألقى كلمته الفصل. وقد نوه فيها إلى دور الصحافة في متابعة الانهيار الأول واستفاض في شرح البعد الرمزي للسور، وأنه شخصياً ذهب إلى السور، ولامس حجارته، وَدَحَمَهُ بكتفه فأيقن بثباته وبأن الخلود والأبدية سينامان قربه مطمئنين.

ثم استبعد رئيس التحرير أن يكون للمقالات والافتتاحيات اليومية التي تظهر في الجريدة أي دور في الانهيار. كما

استبعد أن يكون للصفحة الثقافية والمقابلات التي يجريها المحرر عبد الرحمن بن المنذر، مع المفكرين الكبار في مدينتنا أي دور في اضطراب المدرسة وتشقق الجدران أما عن الرجل الطويل، وصراخه الموزون والمقفى. ومدى تأثير طوله وصراخه في السور فذلك أمر متروك لمناقشات وآراء الحاضرين والأساتذة الباحثين.

وكانت مديرة المدرسة المتضررة الأستاذة (مروة الداخل) قاعدة ومضطربة، وعندما انتهى رئيس التحرير من مقدمته، نهضت بانفعال وصرخت:

- إنني أحمل مسؤولية الانهيار للمهندسين والمقاولين الذين لم يحسبوا حساباً لحركة التربة، وحركة الطالبات في الباحة، وحركة الزوار والمسؤولين وزفرات طلاب المدارس المتربصين خارج السور.

● وقد شعر نقيب المهندسين.. الذي كان من جملة الحاضرين. بمدى الحيف والظلم الذي سيصيب واحداً من أعضاء النقابة، لذلك نهض سيادة النقيب منفعلاً، وقال:

- بصفتي نقيباً للمهندسين فإنني أؤكد الحقائق التالية، لقد قامت نقابتنا بدراسة الانهيار من كافة جوانبه، صحيح أن بعض المراقبين الفنيين المتخصصين في الحفاظ على البنية التحتية قد نجحوا بتسريب نصف كميات الاسمنت

والحديد المخصصة لبناء السور إلى السوق السوداء ليبيعها فيه، غير أن مهندسينا، المشرفين على التصميم والتشييد، كانوا قد حسبوا حساباً لوقوع هذا التسريب، وبالغوا في زيادة المخصصات من مؤونة ومستلزمات، لتظل المواد كافية، ويظل السور شامخاً..إن مهندسينا وهذا معروف عنهم، يغارون على مصالح الجيل الجديد ومستقبله. لكنني وقد استمعت مثلكم لصراخ السيدة مديرة المدرسة، بدأت أعتقد أن صوتها الرهيب قد أصاب روح البناء بالصمم وعجل في انهيار السور وتماوته بهذه الطريقة المباغتة، إن صوت السيدة المديرة ورغم أنوثته العالية. إلا أنه يشكل بقوته وجبروته خروجاً فاضحاً على المدارس التربوية والتعليمية المعاصرة، لذلك وكمحاولة من نقابتنا للوقوف في وجه الانهيارات القادمة، فإننا نتقدم إلى ندوتكم الكريمة باقتراح مثالي، ورخيص التكلفة، ويتمثل بضرورة بناء مدارس بلاستيكية منيعة ومتطاولة، تتيح لمسؤولي التربية والتعليم.. إنتاج طالبات طويلات لامعات بسرعة قياسية، وبمواصفات ممتازة تعاضد حاجة السوق وبهجته..

خلال كلمة السيد النقيب ثار لغط شديد في القاعة، وتمكنت إحدى الموجِّهات المتعاطفات مع المديرة من اختراق الصفوف والوصول إلى شعر نقيب المهندسين وشدِّه من

أصـــوله وفروعـــه، فالتـــأم الـــشمل وتعالـــت الـــصيحات والضربات.. مما أوغر صدر مالك الحزين، فنهض وقال:

• إنني أعارض فكرة بناء مدارس بلاستيكية، كما أعـارض فكرة إعطاء البلاستيك أي دور وسلطة، إن البلاستيك أيها الأخوة شيء مشتق من الطبيعة ومضاد لها، وهـو القنبلة الموقوتة التي إذا استشرت، فإنها ستقوض الحياة معتقدات الناس وأعمارهم إلى أبد الآبدين.

• فاحتقن الجميع، وصمتوا كأنَّ على رؤوسهم الطير، إلـى أن نهض أحد الرجال المسؤولين وطالب بإحضار الرجل الطويل الذي أطلق صرخته للتعرف على أهدافه ومراميه.

• لم تكن عاتكة قد فكرت في الأمر، غير أن غياب المحرر الطويل محمد عبد الواحد في غياهب الحجز والمستشفى دفعها للحيرة والتلفت، وعندما يكون الرجل الذي أطلق صرخاته طويلاً أيضاً، فلابد وأن تنهض عاتكة في محاولة للدفاع عن الرجال الطوال في كل مكان من الأرض، الرجال الذين يملؤون ضآلة زمانها وتَفتَّحَ جسدها بالذكريات والحنان.

ثم وبصورة مفاجئة ظهر المحرر الطويل وقال:

- ربما كان الرجل الطويل كائناً مباركاً غائصاً في

التسبيح والتهجد، وهو أقرب إلى الصوفيين وأسمالهم، واتساع آفاقهم واحتدام مواجدهم.. نعم، ربما كان رجلاً مباركاً.. وربما كان ظلاً لأبي عبيدة بن الجراح الذي حملت المدرسة اسمه. واستسلمت أسوار حلب له أيام الفتوحات الأولى عندما أصبح أميراً بعد أن وصله الكتاب... بعزل خالد بن الوليد على تخوم حلب.. وعندما يفلح القائد في الفتح.. هل يعتبر ذلك إيذاناً بالعزل.

● ثم نهض رئيس مخفر شرطة الكلاسة باعتباره المسؤول الذي يتبع له الانهيار وقال:

- اقترحوا علينا رجلاً لنقبض عليه ونسأله.

- إنني لا أقترح شيئاً، ولا أرغب في شيء.. ثم انسحب المحرر الطويل إلى الباب وغاب وفي رأسه تدوي صرخة خالد **(ألا لا نامت أعين الجبناء)**.

● بعد أن انفضَّ الاجتماع.. ذهب رئيس المخفر مع فصيل الدرك التابع له وقرروا مداهمة الأماكن الطويلة التي تسمح لرجل طويل أن يختبئ فيها وقد بذلوا جهوداً مضنية... حتى تمكنوا منه، وكان قاعداً في المقبرة المجاورة لسور المدرسة المنهار. ولم يكن من غطاء تحته ولا ثياب لائقة تستر صرخاته.. وقد تمكنوا منه عندما كان يعد نفسه لإطلاق

صيحته الطويلة ما عاد أحد يحتمل أحداً حتى الأحجار والسور سينهار.. السور سينهار

● حين تم القبض عليه.. أمسك المساعد المسؤول عن مفرزة الأمن الرجل الطويل من ركبتيه وصاح:

- لا تتحرك.. ألق جميع أسلحتك، واستسلم، المقاومة لن تجديك، ولن تكون في مصلحتك.

بعد قليل اقتيد الرجل الطويل إلى الطريق المجاور للمدرسة، وسارت إلى جواره السيارة التي تقل رئيس المفرزة، حتى وصلت إلى مركز مخفر (الكلاسة) المجاور. وفي غرفة رئيس المخفر وبعد الكثير من الأسئلة أنكر الرجل الطويل وجود أية علاقة تربطه بأبي عبيدة بن الجراح، وبرسالة العزل.. أما الصرخة.. فإنه لم ينكرها.

وحين سأله رئيس المخفر عن تكرار الصرخة وبهذه الطريقة المؤثرة فقد أجاب مرتبكاً: بأن ذلك خارج عن إرادته، وهو شيء قديم فيه.

● وعندما سأله رئيس المخفر.. عن طوله المريب..

● قال الرجل الطويل: ربما أصبحت طويلاً بسبب صراخي الطويل.

- فهل تعتقد بوجود علاقة بين صراخك الطويل.. واضطراب المدرسة وانهيار السور.

- لا توجد علاقة مباشرة، غير أني كنت أتأمل السور كل يوم، ولم أكن أتوقع أن يحصل الانهيار بهذه السرعة. وحين طرح عليه رئيس المخفر سؤالاً يتعلق بالصحيفة المحلية الوحيدة وعلاقته بها، تغير الرجل الطويل وتحير، وتشتت نظراته ومراميه. ثم تداعى على الأرض مثل سور تالف.. وتطاير حوله غبار كثيف.

• عند هذه النقطة نهض رئيس المخفر وبعض الرجال المتعاونين.. والتفوا حول الرجل الطويل في محاولة لترميم روحه.. ليتمكن من العودة بنجاح إلى طوله السابق ومعتقداته، وذلك بغية إكمال التحقيق وانتزاع بقية المعلومات منه.

- إنهم الأجداد.. قال الرجل الطويل جملته بصوت حائر وعميق.

• لذلك لم يتمالك رئيس المخفر نفسه من الدهشة والوثوب وهو يصرخ ويقول:

- ولماذا فعلها الأجداد، وما دخلهم بالمدرسة والسور، وهم أرباب علم وتقوى وصلاح.

- اسألوهم.. أم أنكم لا تعرفون أن بناء المدرسة قد أقيم فوق مقبرة للأجداد وأن أغلب الذين دفنوا في المقبرة.. هم من الفرسان الذين شاركوا في الدفاع عن حلب.. أيام غزوات

الروم والتتار قال الرجل الطويل هذا الكلام.. وهو يداري عينيه بذراعه مثلما يفعل تلميذ صغير من تلاميذ المدارس، بعد أن يداهمه الأستاذ بالنصائح والصفعات.

- وكيف عرفت هذه المعلومات عن المقبرة والجنود القتلى.. وأنا رئيس المخفر الذي يتبع له الانهيار.. لا أعرف ذلك.. ثم أليس من الأفضل للأجداد، وأيامهم العظيمة.. وعظامهم العريقة.. أن يحتملوا ويتماسكوا في وجه القلاقل والمتغيرات، حتى يظل السور قوياً ومتماسكاً ومحافظاً على حالته وصلابته.. إنني أستطيع أن أؤكد بصراحة أن الأجداد قد تجاوزوا حدودهم وأدخلوا البرامج التعليمية في الخيارات الصعبة، لكنني.. لكنهم.. غير أن البناء قد تداعى.. والسور قد انهار.. وهذا أمر خارج سلطتي وصبري.. وأستطيع أن أؤكد.. أن الأجداد في البلدان الأخرى يحتملون.. ويمسكون عظامهم حتى لا يتحقق الانهيار.

ثم ضرب بقبضته على الطاولة فتزلزل الجزء المتبقي من السور وكان الأمر صعباً، وكان مالك الحزين منتبهاً ومنهمكاً في الكتابة، ويغمره إعجاب عميق برصانة المتحاورين.. غير أن قبضة رئيس المخفر وجملته الأخيرة القاطعة.. أنهكت الأجداد والرجال الحاضرين. وأوقعت الجميع في الصمت.. والتدخين، وقد وجدها مالك الحزين فرصة ليعاود صب الأسئلة على زيت الصمت الثقيل.. لذلك نهض وقال:

- يبدو والله أعلم أن المسؤول الذي انتُدِب لرعاية حفل التدشين قد استعمل سكيناً حاداً لقص الشريط الحريري.. وقد بذل المسؤول جهداً مضاعفاً نجح بواسطته في قص عصب المدرسة والسور..

- إنني لا أميل كثيراً لهذا النوع الفظّ من التحاليل.. قال رئيس المخفر معاتباً وهو يحدّج مالك الحزين بنظرات لا تهون. لكنني أعدكم وأعد الأخوة المواطنين، بأن الأجداد سيظلون وستظل عظامهم العريقة موضع الحفاوة والتقدير والمتابعة والدعم الحكومي الدائم.. ثم نهض نقيب المهندسين وقال:

- إنني أبرىء ساحة الأجداد، وأحمّل مديرة المدرسة السيدة مروة الداخل مسؤولية الانهيار.

فربما كانت نسبة الإسمنت في صوتها أكثر ارتفاعاً من نسبة الإسمنت في أساسات السور.. لذلك أفلح الصراخ العنيف والانضباط الجائر في زعزعة الأركان والتعجيل بالانهيار وبسبب حماسة نقيب المهندسين وكمية الرذاذ العالية التي أطلقها في الجهات. بدأت الغالبية تميل لهذا الاعتقاد، وظلت تميل حتى كادت أن تقع على طاولة رئيس المخفر العتيد.

❖ ❖ ❖

• عندما وصلت الأخبار إلى أذني مروة الداخل مديرة إعدادية البنات. بكت بدموع داوية وتساقطت على روحها وخديها.. مدرستان حزينتان.. ثمّ صرخت في وجه المدرّسات المتحلّقات حولها في غرفة الإدارة:

- لو أن صوتي هو المسؤول عن انهيار السور كما يؤكّد كبير المهندسن.. لتوقفت الطالبات في المدرسة عن التفتح والنمو.. ولما احمرّت وجوههن من التأنيب ونظرات أولاد الجيران الملاعين. ثم ركضت بانفعالٍ كبير، وظلّت على هذه الحالة من الركض حتى وصلت إلى زوجها.. فمددته على الأرض، وتفقدته حجراً حجراً وعضواً عضواً فوجدته غير مؤهل للانهيار، فأجهشت أمامه بأنوثة غامرة، وكشفت عن رمّانتي كتفيه وعانقته بصورة فاجأت رجولته.. فتأملها زوجها وتأمل أفعالها وحاجاتها.. ثمّ أبعدها عن نفسه وجنسه، وصارحها بعد الفهم:

- ألم تسمع ما يقولون، قالت المديرة لزوجها متضرّعة.

- وماذا يقولون؟

- صوتي.. صوتي.. وليس سواه هو المسؤول عن انهيار سور المدرسة وتصدّع أحلام الطالبات الناهدات.. وأنا أصرخ في البيت.. أضعاف ما أفعله في المدرسة. فلماذا تهدّم السور، ولم يتهدّم البيت ولم تتهدّم أنت يا زوجي العزيز.

• عند ذلك دمعت عينا الزوج من الوجد. ووجد الوقت ملائماً للمصارحة.. فمال على أحد طرفيه.. وأخرج من أذنه الأولى كتلة من القطن المحليّ الكثيف، ومن الأذن الثانية أخرج وسادة صغيرة، ثمّ همس لزوجته:

- الحب هو السبب. وهو يفعل المعجزات.
- وهذا القطن. ماذا يفعل؟
- لا أحبُّ الحديث عن القطن. عندما يتعلّق الأمر بمصير الأولاد.

• ثم استدار الزوج ومضى إلى الباب.

❖ ❖ ❖

• عندما انهار الطرف الشمالي لسياج المدرسة للمرّة الثانية، كانت الطالبات في الباحة بعضهن يلعبن داخل جماعات صغيرة، وبعضهن وحيدات. وكان للطرف الشمالي أحزانه الخاصة، فأمراء الجند الذين سقطوا في الحصار، كانوا مدفونين تحته.. وكانوا يحسون بالوحدة الشديدة والبرد وكانت عظامهم العريقة لا تطاوعهم على الانتظار. ومع الوحدة الشديدة والبرد.. والصحيفة الحكومية الوحيدة.. لا يستطيع الطرف الشمالي للسور أن يصمد طويلاً.. ولكن الفتيات الناهدات بعيونهن الندية انتبهن

للانهيار.. لذلك أصبن بالذعر وارتجفنَ بغرائزهن العظيمة وصدورهن الغالية التي لم يتح بعد للصبيان الملاعين ملامسة تفتّحها وبريقها. وقبضن على نهودهن حتى لا يطالها الانهيار.. وركضن إلى الطرف الآخر من باحة المدرسة.

• حين حصل الانهيار.. كانت مديرة المدرسة (مروة الداخل) في غرفتها تعقد اجتماعاً مع بعض المعلّمات المقرّبات. وهي تقوم معهن بتبادل الرأي والقهوة والصندويش.. وعندما سمعت دوي الانهيار.. وقفت اللقمة في حلقها من الدهشة والارتياب.. ونهضت من مكانها بقوّة وركضت إلى الباب والممرات والأدراج، كأنّها تركض إلى طفولتها الغابرة. وقد عصف بها شعورٌ غريب، أحست من خلاله أنها ليست هي وأنها فتاة صغيرة تركض إلى الزمان القديم الذي أفلت منها.. وعندما وصلت إلى الباحة. نظرت إلى الطرف الشمالي المنهار بغضب كأنما لتمنعه من متابعة الانهيار حتى تتمكّن من إعادة البنات الفزعات إلى يفاعتهن وبريقهن، ثمّ ركضت إليهن.. وألقت بظلالها عليهن بأمومة غامرة، وتفقدتهن عضواً عضواً، وبريقاً بريقاً وعندما اطمأنت إلى عدم وقوع إصابات، انتبهت إلى السماء وطلبت منها أن تؤجل انهيار مبنى المديرية برمّته، حتى تخرج

الفتيات من المدرسة آمنات.. ثمّ قررت سريعاً بأن الخروج من باب المدرسة غير آمن. لأن ذلك يتطلّب عبور المبنى والممرات ومن يضمن أن لا تتخلّى عظام الجنود المدفونين تحت المدرسة عن الصبر والمجالدة وتتفتّتُ كما فعلت عظام القادة فينهار البناء برمّته لحظة العبور. لذلك قررت المديرة سريعاً تنفيذ خطتها ووضع برنامج للتسرّب من الفتحة الشمالية المنهارة..

لقد فعلها قادة الجند كما فعلتها عظامهم القويّة.. وتفتّت قبل سواها لتمكن الفتيات الناهدات.. من عبور الثغرة واجتياز السور إلى الأسوار الأخرى بأمان.

لكنّ المديرة. لمحت إحدى الطالبات.. والدموع والتنهدات تملأُ روحها ووجهها فاستوقفتها وسألتها:

- هل أصابك مكروه؟

- لا.. ولكنني.. تركت وأغراضي في الصف وأخاف عليهن من الانهيار.

- كلنا تركنا أغراضنا.. المهم أن نصل بسلام إلى البيوت.

• لم يكن ممكناً للفتاة التي تشاغلت بمسح دموعها أن تقول.. بأنّ سبب بكائها (صورة ابن الجيران) التي تركتها في قلب أحد كتبها وأنها قررت أن تعيد له الصور بعد أن تجاوز حدوده، في غفلة منها، ووصل بأصابعه إلى نهدها. لكنّ بعد

الذي أصاب السّور، لم تعد العودة مأمونة، ولا بدّ أن يصيب الانهيار.. الصورة بأضرار لا تحتملها. لذلك تبلل وجه الفتاة دون إرادتها، وتشاغلت عن الجواب، وهرعت لتجتاز الثغرة.

• بعد أن صار الجميع خارج مبنى المدرسة، دون دفاتر

وكتب، ودون صورٍ وأقلام، حصل الدوي الكبير.. وانهار بناء المدرسة على رماد على الجنود الميتين. وتحرك الرجل الطويل من غرفة رئيس المخفر بعد أن استلّ أسماله وروحه ورهافة صوته، وتطاول.. وتطاول.. حتى غاب.

• حين وصل غبار الانهيار إلى أرواح وأجساد الفتيات الواجمات في الطرف الآخر من المبنى، تجرّأت واحدة منهن وضحكت بصوتٍ مسموع.. فالتفتت جميع الفتيات إلى جهة الصوت، ثمّ تعالت الضحكات والقهقهات بصورة مفاجئة. وقد حاولت مروة الداخل أن تخترق الغبار لتتعرّف إلى وجوه الفتيات الضاحكات.. لكن الغبار كان أكثر كثافة من دهشتها لذلك غمرها الحزن واستدارت عائدة إلى بيتها وذكرياتها، غير أنها وفي منتصف الطريق أحسّت بالمعضلة، وفهمت الدوافع، فبدا جسدها بالاختلاج وانفرجت أساريرها عن ضحكةٍ عميقة حنون.. تمنّت من خلالها أن تعود للطالبات لتشاركهن الضحك والغبار الثقيل.

وفي طريق العودة سألت إحدى الطالبات صديقتها، عن أسباب الضحك الجماعي الطويل.

- و هل ضحكت مع الجميع؟

فأجابت الصديقة:

- ضحكت وانفعلت كما لم أفعل في حياتي، لكن دون أن أفهم

- أما أنا فقد خطر ببالي أننا سنعود مرّة أخرى لمدرسة الصبيان لنتابع فيها الدوام، لذلك ضحكت.

- لو خطر ببالي مثل هذا لكنت ضحكت أكثر من سواي.

• ثمّ تابعتا الطريق بنشوة رغم انهماكهما معاً بنفض ثيابهما. لاقتلاع الغبار والعزلة من الجذور عندما وصل خبر انهيار مبنى المدرسة إلى أذني عاتكة، نهضت مستثارة، ومضت إلى موقع الانهيار، فتأمّلت واضطربت وبينما هي كذلك.. لمحت فتاة تبحث في أطراف الأنقاض، فاقتربت منها وسألتها:

- ماذا تفعلين هنا؟

- إنني.. إنني.. ثمّ صمتت الفتاة وزاد اضطرابها.

- لا تخافي.. أنا أعمل في الصحافة، ويهمّني أن أعرف.

- إنني أبحث عن صورة ابن الجيران.. التي نسيتها في قلب أحد الكتب.

- هل تسمحين لي. قالت عاتكة بودٍ ومؤازرة.

- في أي شيء؟.

- في البحث معك عن الصورة.

• حين دخل مالك الحزين إلى منزله، وجد الرؤيا متعذّرة، بسبب الغبار الكثيف الذي ينتشر فيه، لذلك صرخ باسم زوجته بقوّة. ليستعين بالصراخ على إزاحة بعض الغبار عن محيط فمه، وعينيه.

• وقد سمعت زوجته الصوت، وردّت بأحسن منه، واقتربت من مالك الحزين حتى ارتطمت به.

وعندما قعد مالك الحزين وزوجته متجاورين قال:

- لم أكن أعتقد أن غبار الانهيار سيصل إلى بيتنا؟

- أي انهيار؟.. تساءلت الزوجة.

- الانهيار قرب باب قنسرين، ونحن نسكن قرب باب الحديد، فهل يصل الغبار إلينا رغم بعد المسافة.

- يبدو أن الغبار أصاب الجميع. وصار الوقت ملائماً لمرور أسراب الطيور في السماء.

- ولماذا تمر الطيور في الغبار.

- حتى لا يراها صيّادوا المدينة، فيطلقون عليها النار.

- ليت أحداً يطلق علي.

- لماذا؟.

- لأتخلّص من الغبار.. لأنني بسبب هذا الغبار سأضطر مرّة ثانية لتنظيف البيت من جديد.

• وكان من فضيلة الغبار أنه يسمح للزوج بالتسرّب دون أن تنتبه الزوجة إلى غيابه. لذلك تسلّل مالك الحزين من منزله وعاد إلى مبنى الجريدة، وهناك وجد الغبار في أواخر أنفاسه وحالاته، ويسمح ببعض الرؤية.. وعندما قعد على كرسيه، دخلت عليه عاتكة محمرّة العينين..

- عيناك محمرتان.

- ليس بسبب الغبار.

- بسبب ماذا؟

- بسبب الصورة.

- من حق الغبار أن تكون له صورة مثل جميع الكائنات.

- ولكن ليس من حقه أن يدمع عيون البنات الصغيرات.

- البنات الصغيرات.. البنات الصغيرات، لقد تذكرت ابنتي.

ثم نهض مالك الحزين مودعاً واتجه إلى بيته في حي باب الحديد، وعندما دخل كان الغبار يتسرب مرتداً كأنّه إلى زوال، وكانت ابنته الصغيرة تلعب قرب حوض السمك.. وعندما دخل.. شدته من يده إلى الحوض وقالت:

- أنظر إلى الغبار إنّه يغطي الماء.

- الغبار يغطي كلَّ شيء.

- هل يمكن أن نغير ماء الحوض.

- الآن لا يمكن.

• في الصباح دخلت الابنة الصغيرة حزينة، وأمسكت مالك الحزين من ثوبه وهزّته.. فاستيقظ مضطرباً، وتأمل زوجته السمينة النائمة إلى جواره ثم استدار إلى ابنته وقال:

- ماذا تريدين؟

- تعال إلى الحوض. وتابعت جرّه من ثيابه.

- لماذا.؟

- السمكة الصغيرة الملونة.. لا أدري ماذا أصابها.

• نزل مالك الحزين عن السرير، وذهب خلف ابنته إلى الحوض، وتأمل سطح الماء، فلم يجد الغبار، كأن يداً بارعةً قد كنسته، وتأمل السمكة المستلقية بألوانها على سطح الماء وحرّكها..

- إنها لا تتحرّك.

- هل ماتت..؟ سألت الابنة بحزن!

- نعم..!!

- فلماذا صعدت إلى الأعلى..؟

- كل الأشياء الميتة تصعد إلى أعلى.

- عندما ماتت جدتي.. دفنت في الأرض.. فكيف استطاعت الصعود إلى أعلى.

- لا أعرف، يبدو أن الأسماك وحدها تستطيع الصعود إلى أعلى.. لاحظي.. الأشياء القريبة من الماء أكثر جمالاً من الأشياء البعيدة عن الماء، ثم حرّك السمكة بإصبعه ثانية.

• لكن الصغيرة التي تجاور حوض الماء لم تفهم.. وعندما لا يقدر الصغير على الفهم.. يصبح أكثر استعداداً للبكاء. لذلك سالت على خدي الصغيرة نقطة ماء.. وبذلك صارت الطفلة.. أقرب إلى الماء وأكثر جمالاً وبريقاً.

• ثم مضى مالك الحزين إلى المعطف ولبسه، واستعدّ للخروج.

• قالت الابنة بعد أن لمحت المعطف:

- ربما ماتت السمكة بسبب البرد. ألا يمكن للأسماك أن تضع على أجسادها معطفاً مثلك حتى لا تموت.

• وهكذا وجد مالك الحزين نفسه يرتعش من الحب والبرد بسبب حديث ابنته عن المعاطف ثمّ لم يتمالك نفسه فانحنى على الصغيرة واحتضنها وقبّلها:

- ولكن الأسماك.. لا تحتاج للمعاطف مثلنا.

- ولماذا لا تحتاج، والماء بارد..؟

- لأن الأسماك نفسها عبارة عن معاطف مملوءة بالحركة والروح.

- فكيف ماتت..؟

- ربما بسبب قلة الهواء.. أو بسبب الوحدة.. فالسمكة عندما تكون وحيد لا تستطيع أن تتذكر البحر أو النهر الذي جاءت منه لذلك يخطر ببالها أن تموت.

- ألا يخطر ببال السمكة أن تبكي قبل أن تموت..؟

- لا أعرف قد يخطر ببالها وقد لا يخطر.

- لا بد وأنها بكت..

- وكيف عرفتِ بأنّها بكت؟

- لا أعرف.. الذين يعيشون داخل الماء.. لا ينتبه أحدٌ لدموعهم، لو أن دموعها كانت ملونة مثل جسدها.. لكن انتبهت إلى دموعها.

• أدهشت مالك الحزين فكرة أن تكون الدموع ملونة، حتى يفهم الناس مشاعر بعضهم دون كلام، ودون جريدة محلية وحيدة.. لتكُنِ الدموع ملوّنة،، ولتكن دموع الفرح خضراء، ودموع الحب زرقاء، ودموع التعذيب رمادية، ودموع المرضى صفراء، ودموع الأمهات بيضاء، ودموع رؤساء تحرير الصحف المحلية الوحيدة سوداء.

• وتابعت الابنة الكلام وهي تتأمل شرود والدها.

- لو أنني سمكة وكنت أعيش داخل الماء.. هل كنت ستنتبه إلى دموعي..؟

- طبعاً سأنتبه، شرط أن لا تكون دموعك سوداء.. مثل دموع رئيس التحرير.

• ثم حمل ابنته وضحك، وضحكت الابنة، ولم تستطع السمكة الطافية على سطح الماء أن تضحك.

- ليت السمكة تستطيع أن تضحك مثلنا.

- الماء الذي لا يقدر على إظهار دموع الأسماك، لا يقدر على إظهار ضحكاتها.

ثمّ ترك ابنته ومضى مستعجلاً.

❖ ❖ ❖

• في مقر عمله بالجريدة. أخرج مالك الحزين ورقةً وقلماً.

وعندما تذكّر كلمات ابنته، بدأ بالكتابة، وكانت سكرتيرة رئيس التحرير، الآنسة امتثال قاعدةً في الطرف المقابل لمالك الحزين، وكانت فردة حذائها تطلّ من طرف الطاولة، وتنبِّه إلى وجود ساقها الجميل، وكانت الساق مندهشة وملساء مثل

سارية سفينة جانحة، وقد حاول مالك الحزين أن ينهض إلى الساق ليسألها أن تعينه على احتمال الموج والغبار الكثيف، لكنه تردّد وقعد. وقد أحسّت السكرتيرة امتثال القاعدة من جهة رئيس التحرير، بجوع مالك الحزين وخبايا عينيه. فحاولت أن تسحب ساقها وتضعها في الحَجْر خلف الطاولة، لكنها لم تقدر. وظل مالك اللعين في الطرف الآخر، يتأمّل الساق ويتجاهل صاحبتها، ثمّ نهض.. بعد أن طلبه رئيس التحرير. وفي اللقاء، قال رئيس التحرير: إنني أحس بمعاناتك وأشعر بتدهور حالتك وكتاباتك، لذلك قررت أن أطلب منك أن تتوقف عن الكتابة.

- وماذا سأفعل إذا لم أكتب.. سأل مالك الحزين.

- ما رأيك أن تتفرغ لرسم الكاريكاتير، بعد أن غادرنا الرسام السابق إلى الفلبين.

- أنا موافق على الرسم. واسمح لي أن أنبهك إلى أمر.

- تفضل.. تفضل.. (قال رئيس التحرير مغتبطاً)

- توجد تحت عينيك نقطة سوداء، تشبه دمعة قديمة جافة حاول أن تمسحها، وإذا عجزت استخدم مقص رئيس التحرير.

❖ ❖ ❖

• حين وصل مالك الحزين، إلى طاولته، كانت الساق الجانحة ترمقه. فتأملها،

وأخرج الورقة والقلم، وبدأ يرسم ويرسم حتى اكتملت اللوحة، وكانت تشبه شيئاً غامضاً ومليئاً بالأخطاء، لكن الباحث المدقق يستطيع أن يصل إلى بعض المعنى.. وكانت الصورة عبارة عن بحر متلاطم.. وقد طفت على مياهه ساق امرأة.. وفي الطرف الآخر رجل موزع بين الغرق وبين الرغبة في الوصول إلى الساق للاعتصام بها، وقد فكر كثيراً في البحث عن عنوان ملائم، وعندما عجز، وضع عنواناً واضحاً للوحة الكاريكاتيرية، وكان العنوان (اكتشاف أمريكا) ثم حمل اللوحة، ومضى إلى السكرتيرة امتثال ووضعها أمامها وقال:

- ما رأيك يا آنسة امتثال؟

• وهكذا اضطربت الآنسة امتثال حين تأملت اللوحة من كل الجهات، ثم انفجرت بضحك لا حد له، وظلت كذلك حتى خرج ساقاها معاً من خلف السياج.

• لذلك أحس مالك الحزين بالغرابة، وبأنه قد حقق النجاح المنشود فانتزع اللوحة من يد السكرتيرة، وعندما استقرت اللوحة في يده، انعطف بها إلى غرفة رئيس التحرير، وقدم له اللوحة بصورة حادة، كأنما يدعوه للمبارزة فاستلم رئيس التحرير اللوحة وتأملها ثم قال:

- اللوحة معبرة، لكن أين تكمن العلاقة بين اكتشاف أمريكا وبين الساق والبحر والرجل الغريق.

- ألا تستطيع الربط

- لم أستطع

- هذا دليل على أنّ اللوحة قد حققت أهدافها.. إن مهمة صحيفتنا إضاعة المعنى وليس اكتشافه والبحث عنه. ولولا وجود المرأة وساقها لتفتتت المدينة من الخوف والمحاذير.

- لكن لابد أن يكون في ذهنك علاقة أو تأويل.

- يوجد في ذهني علاقات كثيرة.

- أفصح عنها

- ما دمت تلح سأحاول

- تفضل

- بيننا وبين أمريكا بحرٌ طويلٌ زاخر.

- هذا أمر لا شك فيه (قال رئيس التحرير)

- وفي الطريق إلى أمريكا توجد ساق ممتدة في البحر المتلاطم هي إيطاليا.

- هذا أمر لا شك فيه.

- لذلك لابد من التوقف عند الساق لأخذ النَفَس، وفهم أسرار الحروب، ومن ثم مواصلة الطريق إلى أمريكا لمعرفتها وفهم الهنود الحمر المُبادين.

- إنك بهذا المعنى، تثير علينا ضغائن الدول.

- فهل أمزق الكاريكاتير

- أبداً.. لكن بوسعك أن تضع عنواناً آخر.

- وما هو؟

- ليكن عنواناً يتحدث عن ضرورة التزام الحشمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، حتى لا تتكاثر السيقان وتتضاءل الأسماك.

- لقد ذكرتني

- بماذا؟!.

- بسمكة ابنتي التي طفت على وجه الماء.

• ثم حمل مالك الحزين الورقة وعاد إلى مقعده خلف الطاولة، وكانت السكرتيرة امتثال قد تماثلت لبعض الصحو وغادرت أطرافها الصفرة الفارهة، وبدأ التورُّد والحياة يغزوان مفارقها، وسجاياها، وقبل أن تغامر وتبتسم في وجه مالك الحزين، انفتح الباب وأطل الموظف المسؤول عن الأرشيف وقال:

- هل تذهب معي إلى السوق لنشتري السمك؟.

- طبعاً أذهب، يبدو لي هذا اليوم وكأنه يوم السمك العالمي.

• ثم انطلقا معاً، دون أن ينسى مالك الحزين، أن يودع الساق بنظرة أخيرة جانحة.

• وكان الموظف الذي يعمل في الأرشيف، من فقهاء السمك العظام، وكان يؤكد لمالك الحزين وهما في الطريق:

- هل تصدق يا رجل.. بأنني أحس في الليل.. وكأن الماء من فوقي ومن تحتي.. وعندما أتلمس عنقي أحس بالخياشيم.. وقد بدأت أشعر في الآونة الأخيرة بسبب رطوبة الأرشيف ورائحة حبره الواخذة بأنني من فصائل الحيتان

والأسماك اللعينة، وبأنني أستطيع رغم الهواء والتلوث أن أتنفس تحت الماء، لذلك أذهب كل يوم إلى سوق السمك، لألتمس العزاء.

• حين ضحكا معاً، كانا قد اجتازا نصف الطريق الموصل إلى السوق ثم تابعا الصمت حتى وصلا إلى ساحة السمك، المملوءة بالعربات فتأملا الأنواع والأسعار، وكل منهما يتحسس جيبه ويشعر بقلة الهواء، وفي الطرف الآخر من الساحة، احتشد الناس بكثافة تثير الانتباه، وكان الناس يتأملون بنهم، حوضاً للماء مملوءاً بالسمك الحي.. وكان البائع يخرج السمكة الفتية من الحوض، وهي تتحرك في يده كاملة القوة والنشاط ويضعها في كفة الميزان، ويقوم بوزنها بسرعة حتى لا تقفز من موضعها، ثم يقبض على السمكة ويلقي بها إلى شخص آخر إلى جواره يقوم بالإبادة والتنظيف.. وعندما تصبح السمكة المستغيثة في يده، يهوي على رأسها بالساطور، كما يفعل رئيس التحرير بالموضوعات الساخنة، ثم يفتح جوف السمكة ليخرج عناصرها وتاريخها، ملقياً بالأحشاء إلى المزبلة، ثم يدفع بالباقي إلى الكيس، ورغم أن السمكة الملقاة في الكيس تكون دون رأس ولا

عناصر، وجوفها فارغ ومفتوح مثل صحيفة محلية وحيدة، رغم ذلك تتخبط السمكة وتتخبط كأنما تبحث عن ماءٍ قريب...

• قال مالك الحزين لصديقه موظف الأرشيف بعد أن تأمل مجزرة الأسماك:

- ما عدت راغباً بشراء السمك .

- لمـــاذا؟

- أخاف أن تحزن أمي .

- لكن أمك ميتة .

- حزن الأموات أكثر إيلاماً من حزن الأحياء، وأخاف أن تظهر لي أمي في الطريق على شكل سمكة، وتنظر إليَّ بعتاب.

- أما أنا فلا أقدر على الاحتمال، وأخشى إن ابتعدت عن السمك، أن أختنق في الأرشيف.

وعلى ذلك افترق الرجلان وقد حمل موظف الأرشيف كيساً فيه ثلاث سمكات مقطعات، وبوادر حركة تتردد داخل الكيس.. أما مالك الحزين فقد اشترى سمكة واحدة، وطلب

من البائع أن يبقيها حية في الكيس بعد أن يملأ الكيس بالماء.

• حين وصل مالك الحزين إلى البيت، استقبلته زوجته

ببدانة واضحة واستقبلته ابنته بدهشة، وعندما اقترب من الحوض وأفرغ الكيس فيه، ظهرت السمكة كبيرة ومعتمة، وبدأت تتحرك بصعوبة داخل الحوض، وهي تفتح فمها بقوة كأنما لتستغيث.

• فقالت الابنة:

- إنها سمكة سوداء.

فابتسم مالك الحزين وقعد إلى جوار ابنته وحكى لها حكاية السمك في السوق.

- ولكنني أحب أن تكون السمكة صغيرة وملونة.

- الأسماك الكبيرة تفقد ألوانها.

- ولماذا؟

- لا أعرف. ولا يعرف صديقي في الأرشيف.

• ثم ضحكا معاً ونهضا لتبديل ماء الحوض، حتى تشعر السمكة بالراحة والأمان

• في الصباح نهضت الابنة مبكرة، وركضت إلى الحوض

لتتأمل السمكة، فوجدتها وقد

طفت على سطح الماء. فحزنت ولم تحاول إيقاظ والدها حتى لا يحزن معها.

• في مقر عمله في الجريدة، جلس مالك الحزين إلى طاولته، وبدأ برسم الكاريكاتير الجديد، وقد رسم ومزق حتى أعياه التمزيق، وعندما رفع رأسه كانت السكرتيرة واقفة قربه تتأمل.. وكانت ساقها التي تتمرد عليها، واقفة إلى جوار مالك الحزين.

- تفضلي واستريحي.

قعدت امتثال على الكرسي المجاور، وأفردت ساقها إلى جهة مالك الحزين ثم أشارت إليها:

- ساقي هذه التي من طرف الخزانة، منتبهة إليك من زمانٍ بعيد، وكلما حاولت حبسها خلف الطاولة تخرج عن إرادتي وتلتفت إليك، أول الأمر لم ألتفت إليها، غير أنني

وبعد أن تأملت صورة الكاريكاتير، فقدت القدرة على جذب الساق والتأثير عليها، لذلك أصبحت هذه الساق من حقك.. فتصرف معها كما تريد.

ساعة الانصراف خرج مالك الحزين برفقة السكرتيرة امتثال، دون أن تلتفت السكرتيرة إلى جهة غرفة رئيس التحرير.

• وعندما وصلا إلى مطعم (السترااند) قعدا قرب حوضٍ مملوء بالسمك الملون.. وانتبها إلى حركة الأسماك وبريقها، وعندما ارتطمت الساق بالساق شعرا بالمد والموج يقتحم عليهما النوافذ ويحملهما إلى البحر البعيد.

❖ ❖ ❖

في اليوم الثاني دخلت عاتكة، حزينة وفزعة، وركضت إلى مالك الحزين وعانقته أمام عيني السكرتيرة امتثال.. ثم تخلصت من عناقه وجلست إلى جواره مشعثة ومرهقة وقالت:

- الكلب الذي يجاور المقبرة مات.

- الجميع سيموتون بما فيهم رئيس التحرير.

- الأمر لا يحتمل السخرية.

- ولماذا.. وقد كنت كثيرة المعاناة، من الكلب ونظراته.

- لقد بدأت أشعر.. بأن الكلب شيء آخر وفيه الكثير من ملامح ومعتقدات الأمير في حكاية سندريلا.. وقد بدأت أحس ببرده ووحشته، وحين قررت أن أدعوه إلى البيت مات.. هل يمكن إذا دعوت المقبرة إلى بيتي.. أن تموت هي أيضاً. ثم نهضت عاتكة وخرجت دون أن تنتظر أي جواب.

❖ ❖ ❖

لذلك نهض مالك الحزين متحيراً، ولحق بعاتكة، لكن البوّاب أخبره بأنها خرجت فعاد ودخل إلى مكتب رئيس التحرير فقدم له رئيس التحرير إعلاناً، عن طلب رسامين للكاريكاتير للعمل في إحدى صحف الخليج. فأخذ مالك الحزين الإعلان وقرأه ثم حمله ومضى به.

وبعد حوار مع نفسه وزوجته، والسكرتيرة امتثال قرر مراسلة الصحيفة المذكورة وأرفق في الرسالة بعض الرسوم الكاريكاتيرية. وانتظر أياماً طويلة حتى جاءه الرد بالموافقة.

عند ذلك فرح كما يفرح مواطن من الفلبين.. ثم مضى إلى البيت وأعد العدة واتجه إلى المطار. وعندما وصل ساحة المطار تأمل السماء وخيل له أنها إلى جواره.. وشعر كأن أسراباً بعيدة من طيور الكراكي، ومالك الحزين تُحَوِّم وتضطرب، وتدور، ثم تناهت إليه من البعيد أصوات طلقات موجهة إلى السماء.. فاضطرب وتلون.. وغادرته الطرافة والريش، وتذكر ابنته وسمكتها الملونة، وعاتكة ومقبرتها المجاورة. ثم اقترب شبح الطائرة وهديرها وتذكر.. عندما تنجح الطلقات بالنيل من السماء كيف يمكن للطائرة أن تطير. لذلك تابع التحديق في السّماء حتى غابت الجهات في آفاق عينيه. فشعر بأن أسراباً من الطيور الورقية تملأ الهواء والأحداق والشرفات... وتدوِّم حوله.. وترتمي بين يديه.

خيل له ذلك، وعندما هبطت الطائرة العملاقة على الأرض أحس مالك الحزين بالرعدة والاضطراب وخلال ذلك اقترب المصور الشاب زكريا من مالك الحزين.. وهمس في أذنه:

- عاتكة ماتت وقد أحس مالك الحزين بالرعدة تتهب جسده وتكاد تلاشيه... لكنه تماسك وتمالك نفسه ويقظته،

وتساءل: هل جاءته الرعدة من هبوط الطائرة؟ أم من خبر موت عاتكة. وماذا يمكنه أن يفعل في هذه البرهة.

هل يضطرب ويرجع إلى جسد عاتكة ليحتضنه ويعاتبه ويمعن فيه.

أم يضطرب ويتقدم باسمه وذكرياته إلى جسد الطائرة، ليستسلم له.. ويتوارى فيه.

إلى أي الجهتين يركض؟

إلى أي الجهتين يطير؟

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

تتناول الرواية حياة صحيفة محلية وحيدة.. وتفاصيل ويوميات الناس فيها، فرحهم وحزنهم، نجاحاتهم وإخفاقاتهم... إلى الحد الذي تبدو معه الصحيفة المحلية الوحيدة.. وكأنها صحيفة في الجحيم. حيث يتداخل في تفاصيل يوميات الصحيفة وناسها... الواقعي بالغرائبي... المعقول وغير المعقول... السخرية بالأسى... ليشكلا معاً مزيجاً ... يفجر من داخل المفارقة الابتسامات .

الهيئة العامة السورية للكتاب

The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ٩٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ١٨٠ل.س